محمد المنصور الشقحاء

نبتت الأرض

مختارات قصصية

دار البسمة

للنشر الإلكتروني

نبتت الأرض

محمد المنصور الشقحاء

اسم الكتاب: نبتت الأرض

اسم الكاتب: محمد المنصور الشقحاء

نـوع العمل: مختارات قصصية

الرقم الدولي EBIN: 16-149-01-210921

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2021م / 1443هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

محفوظة جميع الحقوق

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر. ©

نبتت الأرض

مختارات قصصية

محمد المنصور الشقحاء

دار بسمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم هشام عبد الله ورو

تظل القصة القصيرة عنواناَ للحياة، وترجمةً حية للواقع الذي يعيشه المبدع محاولاً التعبير عن آلام المجتمع وآماله، ناهيك عما يعانيه المبدع من ظواهر تواجه مسيرته الإبداعية فيدونها لتكون سيرة ملهمٍ قدم لمجتمعه عصارة وجدانه.

ومن الوهلة الأولى لتصفحي هذه المختارات القصصية الرائعة للقاص المبدع محمد منصور الشقحاء الصادرة عن دار بسمة للنشر بالمملكة المغربية.

قلبت العناوين فوجدت ان القاص اختار عناوينه من وحي الأفكار التي عالجتها المجموعة، وقد جمع بين الرمزية والواقع في حركةٍ انسيابية شكلتها العناوين فكانت مفتاحاً لنصوص المجموعة.

عند قراءتي للمجموعة عادت بي الذاكرة لبدايات قراءاتي القصصية والتي لامست حكايات البسطاء والأماكن الشعبية والمقاهي التي كانت تمثل منتديات ثقافية وسياسية.

تتميز هذه المختارات بالانتقال من الخاص إلى العام وكأنه يريد أن يجمع في دفتي كتابه ما خزنته ذاكرته الإبداعية ومخزونه اللفظي الذي ميز هذه المختارات حيث اختار كلماتها بعناية فائقة.

لست بصدد العمل على سبر أغوار هذه المختارات بقدر ما أسعدني أن أقدم للقارئ العربي مختارات جديرة بالقراءة وجديرة بالنقد والتحليل في جوانبها الإبداعية المختلفة.

تحمل المختارات مجموعة من القيم الإنسانية النبيلة التي عالجت الهم الإنساني وما يعتري الإنسانية في مجملها من خروج عن السائد حيث عبر القاص عن مواقف وآراء شخصية تجاه الكثير من الظواهر بأسلوب سلس اضاف إلى بعض النصوص ذاتية الكاتب وحضوره الطاغي الذي أكد فيه معايشته لأحداث معينة اتكأ فيها على أحداث تاريخية أثرت في المجتمع بشكل عام، ذلك أن أي تجربة إبداعية لابد أن تنطوي على بعد سيكلوجي.

لم يسعفني الوقت لسبر أغوار هذا العمل الإبداعي للكاتب محمد الشقحاء بشكل أكبر على الرغم أني لا أعرف الكاتب معرفة شخصية إلاّ أن حروفه الإبداعية كانت مدخلاً مهماً للتعرف على تجربة إنسانية رائدة.

في المرآة وجه يجهش بالبكاء

تجاوزت تعثر سوء من كان يتزود ممن لا زاد له، بعد ليل طال بلا قمر فتعلمت نشيدا منفردا اهجر فيه ظروفي الصفراء عن الحياة وهاجس الموت.

بكيت لما رأيت الضياع كمعشوقة تنزف كالشلال في كل اللحظات فأنا زهرة استثنائية في حديقة تعج بالبسطاء.

بعد زواجي تراكمت الخرائط بدوت صغيرة كحبة سمسم في بيدر امتدت فيه السنابل على مد النظر.

اختفى ذات ليلة وتواصل الاختفاء فراشي كسته السكينة، خفق زخرف الحياة المتعالي فقد ظله لأعرف انه تم توقيفه والتحقيق معه بسبب خلاف في إدارته، معها دخل السجن هكذا جاء اتصاله القضية معتمه.

تواصل همس زملاء العمل بغير الحقيقة فقاومت كل العواصف، وفي نهاية العام الأول لغيابه عرفت انه أفرج عنه، وسوف يعود لم اعترض فكان

عليّ أن استعد للحضور، قنديل عتيق أسرج في داخلي يكشف الخراب وتراكم الغبار فلون طريقي الق جزائر اللؤلؤ حتى اعبر.

رن هاتفي النقال كانت إحدى صديقاتي اعرف عذابها قالت: عرفت من يشاركني التسول تحدثت كثيرا معها مزجت مداد قلبي باللون الأخضر، غادرت الدار للسوق من أجل إعداد لحظتي الجديدة، لفت نظري عند المتجر الذي أتسوق حاجتي منه شغبه يشاركني التجول والوقوف عند المحاسب ليتلقفنا المخرج ويبلعنا الشارع فشمس الله تشرق وقمر الخالق يضيء وكواكب السماء تلتمع.

لم أقاوم خوائه فقد نبه لحظة الابتسام، جمعتنا اللحظة تساوينا في صفة المنبوذين خطرت في أعماقي أزمان غير ذا الزمن.

قلت: هل تحفر

قال: نجرب

أنوجد الحال فقد وجدت من ينقب عن الحفر المندثرة في جسدي، غمر الصفاء أعماقي وانخضب السؤال؛ الهرب برزخ التائهين لا أدري كيف تغير لوني وكل خفق حكاية.

شعرت أني أغوص فيمتلئ جسدي بالماء وانتشي برواء المسافات واستعر المعنى المقشر بصورة ابني فتجاوزت الوصف وذهول الحالة.

الحفر حمل البشارة والتدفق شكل نطفة التكوين، فعلت شيئا مألوفا وقد تعودت النسيان. . الدقائق تكتم التفجر أنا اعبر نقوش البهاء، ساعدني كي أقوم من الرماد وارسم خط البدء والانتهاء ودقات قلبي أجدها تتجاوز جسدي النحيل.

المطر ينثال وأسترد معه الذاكرة التي فقدتها مرآة تريني اتصال متوتر، دورانه أدى إلى اتحاد وجداني مع وجود زرع في داخلي الهدوء والسكينة، القلق الطفولي تشكل ونظراتنا تلتقي تيقظ هاجسي كغيم تصاعد في الغرفة.

في مركز التجميل وأنا أعيد صياغة معالمي قالت إحدى العاملات وهي تنهي تشذيب أصابعي بعدما قصت شعري: ها أنت عروس لن يسأم رجلك من أنفاسك.

جاء لم يتحدث عن غيابه عانق طفلي، كفه الباردة عانقت كفي المفعمة بالحياة، لحظة التمرد انطلقت مع جسد غادرته حيويته لأنهض على شمس شتائية تضيء الغرفة.

❀❀❀

اعتراف بأمر يخصني وحدي

قال: لا أعرف أبي عندما تفتح ذهني كانت أمي هي كل شيء، في الثامنة من عمري وبناء لدعوة ملحة من خالتي كان سفري الأول ومعه عرفت قيما جديدة وناسا لهم حراكهم الخاص والعام، وها أنا وقد تجاوزت الخمسين أسير وحيدا في مدينة لم تشكل شوارعها وضجيجها أي نقطة حياة في وجداني.

قال: وأنا في الرابعة عشرة من عمري كان علي العمل خادما في منزل أحد أقارب زوج خالتي، وفي الشهر الرابع وعند غياب رب الدار اكتشفت فصلا جديدا من حياتي من خلال سيدة الدار التي أصدرت أمرها بأن أراقب طفلها وأنا أقوم بغسل بعض الملابس، لما انتهيت حملت الطفل وبحثت عنها؛ فوجدتها في غرفة الضيوف تتحدث عبر الهاتف، لما لمحتني أغلقته ونهرتني وهي تغطي عريها ثم سحبت الطفل مني واختفت.

قال: في السادسة عشرة تعرفت على رفيق الدراسة في المرحلة المتوسطة صالح فتى فلسطيني يلاحقه الأقران لكسب وده، ذات ظهيرة شاركت في

عراك آخرين تطاول بعضهم بالفاض قاسية عليه وعندها عرف أبناء الحي قدرتي في القتال.

قال: جارنا رجل عسكري شارك في حرب فلسطين تأخر زواجه بسبب تنقله في مهام عسكرية ورعايته لوالدته وأخته التي لم يتقدم أحد للزواج منها، وأخ يقاربني في العمر يأتي في العطل والإجازات؛ فأمه الزوجة الثانية لوالد جيراننا المتوفى منذ زمن بعيد والمتزوجة من أخر وافق على بقاء ابنها معها.

قال: توفت والدة جارنا العسكري الذي استقر ترحله بسبب وصوله إلى منصب قيادي في قطاع التدريب العسكري، معها فكر وقد تجاوز الأربعين في الزواج فكان له ما أراد؛ كانت الزوجة من أقارب والدته تصغره بعقدين من الزمان توافقت خطوطها مع أخته فوجد في السكينة التي لم يقلقها شيء سوى تأخر حمل الزوجة ليكتشف انه عقيم؛ وإنها تحتاج إلى علاج طويل لتتجاوز حالتها وان كانت النسبة متدنية.

قال: بعد عشاء يوم اخذ الجار زوجته إلى راق وصل منذ أيام من دولة عربية في ضيافة شخصية معتبرة بعد ترتيب مسبق كنت العب مع الزوجة ومع الأخت الكيرم، تشاركنا الخادمة الأفريقية اللعب والصراخ. . بقيت والأخت وانشغلت الخادمة بشئون المنزل وواصلنا اللعب أنا والأخت.

قال: في اتصال هاتفي دعتني الأخت لأمر هام عرفت إنها قلقة بشأن أخيها وان تأخر زواجها جانب منه خوفها من عواقب فقدها لعذريتها بسبب مداعبات أحد أفراد المركز الذي تولى إدارته أخيها وهي في العاشرة من عمرها لتدخل الزوجة متلبسة اللحظة فتنقلت نظراتها بيني وبين الأخت ثم جلست بيننا لتلتفت نحوي وتقول احبك وتلتفت نحو الأخت وتلتحم بها وتقول بصوت مرتجف أعشقك.

قال: قلق الأخت انساب إلى أعماقي ووجدته في حديث أمي وأختها وانساب بعضه في يومي الدراسي من خلال مشاركتي في صحيفة حائط للفصل ناقش فيها أحد المشاركين نعمة الدنيا الأطفال.

قال: كنت حقل تجارب وجد في الجار من خلال زوجته وأخته جزءاً من الحلم فقد تجاوزنا الحديث النظري بمناقشة العمل والخطوات فكان أن تم عقد قران الأخت على قريب للأسرة ولم يتم الزواج إذ اكتشف الجميع أن أمه أرضعتها فكان التفريق . . معه اتفقت الأخت والزوجة على تجريبي سافر جارنا في رحلة عمل تجاوزت الشهرين كنت فيه البديل للزوجة ولم يظهر الحمل عندها جاء دور الأخت التي رسمت كل شيء فجاء حملها؛ فرح صامت عم الدار وعند الولادة أدخلت المستشفى باسم الزوجة.

قال: تخرجت من الثانوية وكان السفر الثاني للدراسة الجامعية تركت أمي في ضيافة أختها الأرملة وعند التخرج كان الحفل برعاية قريب زوج خالتي عندما صافحته مستلما شهادتي حدق في، لم ينبس بكلمة وان كنت شعرت بانقباض وهو يخافت الواقف بجانبه بشيء وانصبت نظرات الاثنين كسياط تلهب جسدي.

قال: بعد حصولي على الوظيفة جاء سفري الثالث وفي نهاية الشهر الثاني استسلمت أمي للمرض وجرى إدخالها المستشفى وأنا أراجع في أوراق نقلها للعلاج في مستشفى متخصص، لفضت أنفاسها وفي المقبرة شاركني أبناء خالتي في الدفن وتقبل العزاء، وكان بين المعزين جارنا العسكري الذي خط الشيب فوديه، احتضنني وأجهش بالبكاء.

❁❁❁

الحكاية تخدع الصنم

هي لحظة تشكلت خارج سياق حياتي الممتلئة: الانشغال بالعمل ومتابعة حالة والدتي الصحية ومشاكل شقيقتي المتزوجة، وتدني درجات التحصيل العلمي لشقيقي الوحيد واهتمامات والدي بمخرجات عمله على حساب هدوء الأسرة وبالدراسة والبحث العلمي.

جاء من أقصى الجنوب بحثا عن العمل وبما انه من عائلة أسرة والدي؛ فقد حصل على وظيفة في الإدارة التي يرأس والدي أحد إداراتها، ومن هنا كان يوفر لي بعض مطالبي كباقي أفراد الأسرة عندما نستعين به، وكان احتفالي بحصولي على درجة الماجستير مناسبة للزميلات لإقامة حفل خاص.

وجاء ليوصلني للمنزل كانت معي أخرى أوصلناها لمنزلها في شمال الرياض متجاوزين الحي الذي اسكنه أولا؛ الإصرار جاء مني لم أقومه حتى الآن وان انبثق من وجودي وأزمة تماهي خضت معه عملية إدراك كجزء من نفس توقف تحليلها بسبب غمار حرب أعلنتها متجاوزة عمليات اختزال اشتركت فيها.

ساعدني في إنزال بقايا الحفل في مدخل الدار الذي يعمها السكون، والدي مسافر ضمن لجنة لتطوير فرع جديد لإدارته، وشقيقي المراهق مع أصدقائه بالمقهى ووالدتي في غرفتها تتابع حلقة جديدة من مسلسل تركي ناطق بالعربية يبثه التلفزيون في غرفتها.

أمسكت بذراعه ودخلت الدار، العتمة تلف الصالة والدرج؛ لنلج غرفتي تطلع في مبتسما، في كمالية متجاوزة أزمنة كان التطابق ممتنعا فيضها؛ تفتحت أكمام لذات علا في الوصول إلى كمال المدرك الذي معه انبثقت اللحظة.

شيء فيه أشعل شهبا ذهبية في فضاء الغرفة، وتدفقت الحياة في داخلي متجاوزة الخوف والفزع الذي كونه قلق عرى وجودي؛ ففقدت رشدي وشنقت كلماتي ممزقة بين السلوك والصيرورة، تجاوزت التوتر وإشكالات تصدم اعز أحلامي وتفاصيلها الصغيرة وأحداثها الثانوية، ودب التعب في أطرافي إنها المرة الأولى التي لجمت أفكاري؛ كمن حبس أنفاسه حتى يؤخر اللحظة التي سيتألم فيها.

كانت علاقاتي العبثية والمحدودة صور خيالية عبر الهاتف أو خلال لقاء في مكان عام يمثلها كمال وجود بحت، ولحظات عبث تقدم عليها إحدى صديقاتي عندما نختلي فجأة، غادر الغرفة لم اهتم بما يحدث كمن أصيب

بصعوبات في الذاكرة الفراغية، انزلقت في خدر ونمت كما لم انم خلال ثلاثين عام؛ على طاولة الغداء قال والدي إن سعد سافر لمعاينة والدته المريضة، تذكرت ليلتي وكيف اجتاح هذا السعد جسدي واستباح حصوني تركت الطاولة.

دخلت غرفتي رائحته في الفراش؛ نظرت إلى وجهي في المرآة فوجدت ملامحه الخالية من الغموض ينضح غبطة صافية ورغبة في تأكيد وجودي، وأثاره في كل مكان لم أقوم الفعل الذي خططت له كل قوى الشر، ودرجة الرغبة التي كنت عليها وان شعرت انه تواءم مع تضاريس جسدي واهتمامه الذي اثر في نفسي، وفق زمن إبداعي هو شكله فتحكم عن غير قصد في هيمنته فلم يهتم بسلبيتي الفاحشة.

رن الهاتف كانت أختي تخبرني بقدومها دخلت الحمام استحضر ذاكرتي؛ ابن أخت زوجها المبتعث يرغبني زوجه لم اعترض ولم أفكر كثيرا جاء زواجي مبسطا وعائليا في ليلة سفرنا؛ قالت أمي وهي تودعني إن جارتنا طلقها زوجها الذي تأكد أنها مريضة بسبب الصراع الاجتماعي الذي فرغ مقاومتها والطبيعة القاسية التي اندمجت فيها بسبب مغامرة كانت وراء عذاباتها؛ فلم تملك أعصابها فانهارت نفسيا.

في ارض الغربة قررت إكمال دراستي الجامعية إذ تمكنت من اخذ موافقة الجامعة التي يدرس بها زوجي؛ بعد أشهر من انتظامي بمعهد اللغة لتنمية مهارتي في المحادثة عند التسوق، وفي اتصال بأسرتي اخبرني والدي وهو يخبرني بموافقة جهة عملي على الدراسة وتحويل غيابي بعد إكمال السنة الإجازة بدون رواتب إلى مبتعثه من مرجعي بعودة سعد، لما سألت أختي عبر الهاتف عنه لم تقل شيء.

أخبرني زوجي انه استتم دراسته وقد تبقى علي عام حتى أناقش رسالتي وباتفاق مع والدي بقيت لأجد ذات صباح سعد يقف على الباب، انبهاري باللحظة شلتني تراجعت أغلق الباب وامسك بكفي أجلسني على أحد مقاعد غرفة الجلوس وجلس في المقعد المقابل لم نتحدث؛ المكان واللحظة عبرا عما يتعامل في داخلنا عرفت انه جاء مع والدته المريضة.

نهضت لأحضر مشروبا من المطبخ لحق بي شيء فيه يمتلكني وفي أعماقي تتشاجر المشاعر حول الصلة المنظورية، وأنا انظر إليه من الداخل سعيا إلى الأمان وفق حالتي التي يصرفها عناد أعمى.

كان يعيد ترتيب حواسي، فمشاعر التأزم والتمرد أفقدتني قوة الإحساس بالأشياء التي تخلق الفعل، وكما كان في اللحظة الأولى منذ عامين، تركني

في الفراش وأختفي ليأتي هاتف والدي إن سعد عاد وان أمه ماتت تحت أجهزة العملية الجراحية.

جاء أخي وجاء زوجي وشاركاني حفل منحي شهادة الدكتوراه لنعود ثلاثتنا، عدت لعملي وزميلاتي لأتولى إدارة المتابعة والتطوير فيها خليط من الموظفين، وبعد ظهر يوم عمل حافل بالاجتماعات ومشاكل أحد الفروع جاء صوت سعد عبر الهاتف يقدم تقريره عن الفرع لم استوعب النقاط التي تحدث فيها؛ فقد فوجئت بعد عام من استلامي رئاسة الإدارة أنه أحد العاملين في إدارتي.

غادرت المكتب لأجده يقف بسيارته لم أتردد في الركوب انطلق مندغما في شوارع اعتدتها ليقف أمام منزل أجهله ترجل ولحقت به ترك الباب مشرعا أغلقته، لم يعد هناك ما يمكن أن أخشاه واخذ يدور بي في فضاء لم استبينه بسبب تراكم الصور التي هاج معها التلذذ الباعث للشوق متجاوزة التأمل، هذه المرة كنت املك حق المقاومة واستطاع الحلم إخفاء الجدار الفاصل بين الوهم والحقيقة، في سيرة ذات تبحث عن وجودها.

إنما جاء مكتسحا كل شيء اغترف ما شاء وقدمت له ما يشاء؛ وليطلقني زوجي الذي قرر الهجرة إلى لندن حيث استعار خدماته مؤسسة

إعلامية تخطط لإصدار صحيفة عربيه، وفي أحشائي بذرة أجهل قاذفها؛ تشكلت طفلا ذكر احتفلت به أسرتي فأسميته سعد.

الممثلة تقفز من النافذة

وانا على مشارف الرياض استوقفتني اضواء سيارة على جانب الطريق، بعد تردد تمهلت حتى توقفت، لأجد أحدهم يتلمس المساعدة لعطل محرك العربة، ثم جاء صوت انثى من خلف العربة تطلب الفزعة، عندها وافقت على حمل المرأة ومرافقتها بينما يصلح عطل السيارة ويلحق بنا في الطريق ومن الحديث المتقطع، عرفت اسباب قدومهم للرياض لحضور مناسبة عائلية، ولما اندغمنا في شوارع الرياض اكتشفت ان الاثنتين لا يعرفن عنوان المكان المتجهات له ولا يحملن ما يثبت هويتهن لاستئجار غرفة لهن بالفندق او شقة مفروشة، وابدين موافقتهن على مرافقتي الى شقتي، مع معرفتهن انها خالية فزوجتي عند اهلها في شقراء تضع ابننا الثاني، نمت في غرفة الجلوس وفي الصباح ذهبت للعمل، ولما عدت لم اجد أحد ولفت نظري ورقة ملصقة بمرآة مغسلة حمام غرفة النوم (بكل اسف استعرنا بعض اثاث البيت لتسديد قيمة اصلاح السيارة ونفقات الرحلة. غيداء) ركضت بين غرف الشقة المفقودات جهاز حاسب والتلفزيون في الصالة واجهزة هاتف مندسة في درج كمدين غرفة النوم،

وبعض ادوات المطبخ الكهربائية بما يعني مبلغ عشرين الف ريال؛ انهرت على أحد مقاعد غرفة الجلوس وبعد تفكير اتصلت على الهاتف الذي يحمله سائق السيارة المتعطلة فكان مغلق؛ ورقم اخر وجدته في هاتفي اتصلت عليه المرأة ونحن في الطريق فوجدته ايضا مغلق، وعلى رقم احتياطي استعمله عند السفر ضمن الجولات المسروقة رن حتى توقف، اخبرت زوجتي بما حدث وضحك مني والدها عمي وباقي افراد الأسرة، ليقول أحدهم انه يعرف من يأتيه باسم صاحب الهاتف المجهول للوصول الى هوية من سرقني، الرقمين باسم وأحد تم ايقافهم واستخراج البديل؛ نسيت الموضوع وعادت زوجتي بعد تجاوزها الام الولادة، وبينما وهي تقوم بتنظيف غرفة الجلوس وجدت هاتف نقال مغلق بسبب طول المدة، الجهاز مجهول والمكان الذي وجد فيه مكشوف؛ اعدت شحن بطارية الهاتف واخرجت شريحته وادخلت شريحة هاتفي، ووجدت في ذاكرة الهاتف ارقام واسماء وفي الأستوديو بعض الصور لأجد سيدتين لفت نظري جمال أحداهن وعندها انفجر صمت زوجتي انها مزنه واختها غيداء، واسترسلت زوجتي في الحديث عن غيداء زميلة الدراسة في القرية اتي تسمي نفسها سعاد حسني الممثلة من خلال حراكها داخل المدرسة، ووالدها أحد مدرسي المدرسة الوافدين من الشام ورحيلهم بعد انتقال عمل والدها لمكان اخر، اتصل قريبي بعدما وصلته المعلومات ليخبرني ان

المعلم يستقر بالرياض وابنته غيداء حصلت على الجنسية بعد زواجها بمواطن وكذلك اختها مزنه انما هي بسبب تطلعها الأفضل تسبب في طلاقها ولتجد في أحدهم شريك في بحثها عن معاش امن ورفاه تقلد فيه من حولها.

الفضول يغير المعالم

والحفل يعلن ختام برنامجه جاء جلوسي لشرب فنجان من القهوة المرة سكبه نادل يرتدي ملابس تراثية ملونة على طاولة بعيده، من خلالها انقل بصري بحرية في زوايا المكان، لتأتي وتجلس بجواري تبادلنا حديث تقطع وتعليق على فقرات الحفل ليرن جرس هاتفها النقال، عرفت إنها كانت تنتظر وقال المتحدث شيء معه تركزت نظراتها علي وهي تردد لا أدري لا أدري ثم تلحقها بقولها تعال جس النبض.

وأقبل كان زميل في المؤسسة الصحفية التي أتعاون معها، مد كفه مرحبا وهو يردد: أخيرا أخيرا ليذكرني انه سعى كثيرا لكسب ودي إنما لم يحالفه الحظ؛ ثم تركنا لتقول: أنها مدعوة لحضور لقاء خاص مع صديقة تأخرت في الحضور، كل ما شعرت به كان فضولا موضوعيا وعنيفا؛ وأنها تتمنى علي مشاركتها اللقاء وكفها تضغط على كفي الرابضة على الطاولة.

كانت منفعلة إلى حد ملائكي وهي تقربني من أجواء المناسبة، كنت اعتقد إنها سوف تتحفظ وهي تقرب لذهني إمضاء وقت عصي التفاصيل

وأحمق، ابتسمنا لبعض بتواطؤ عذب وقلت: إن الوقت الذي أمضيه برفقتك من أجمل ساعات حياتي؛ فقالت: وهم. . . المهم موافقة.

ليس من المستغرب أن يكون السعي إلى تحقيق معجزة، فاتحة طرق أمام لحظة انبثاق جديدة تولد الحرارة التي معها يتشكل البدء برؤية مغايرة. تمنحني الثقة بالذات وأنها محاولة اعتدتها تبدو لي في هذه اللحظة بالغة الشفافية فيها أراجع نفسي ولا أغرق في تعاستي.

وجاء بعد اتصالها كانت الساعة العاشرة ليلا، نجلس في المقعد الخلفي من سيارة بيضاء وأخرجت من حقيبة يدها مظروفا مخطط غير مغلق، فتحته كانت بداخله عشر ورقات نقدية من فئة الخمسمائة ريال عزلت خمس وناولتني ضمت أصابعي عليها وهي تهمس: مكافأة المشاركة التي سعدت بها؛ لأعرف البدايات ومما تولد وهل هناك رحم للأوجاع.

فتح الباب ورحب بنا رجل في منتصف العمر سرنا خلفه لنجد أخر يجلس وشاشة التلفزيون تبث فلما أجنبي نهض لمدخلنا ومد كفه قال مستقبلنا: السيد عباس وأنا عادل وخالد وسعيد في الطريق وبعد جلوسنا قالت مرافقتي: أنا زينب وهذه صديقتي فاطمة، كنت كما هرة تنتظر كف مربيتها حتى لا تنفر من ضيف حل.

بعد حديث متقطع ومشهد أكثر حميمي يشكله أبطال الفيلم الذي تبثه قناة تلفزيونية مشفرة قام عباس ووقف قبالة زينب التي رمقتني مبتسمة ثم اختفت، عادل اقترب مني شيء فيه دفعني إلى تصنع البراءة التي تمنحني بعضا من الثقة بالذات، قال: الوقت يمضي ونهض وضع كفه على كتفي فقمت طوقني بيده اليمنى وسرنا متجاورين.

بينما نحن نقضم ما تبقى من فطيرة التوت، تردد حديث بين الجدران همس في أذني: هاه لقد وصلا، تركني في العتمة وأبقى باب الغرفة مواربا؛ ولفت نظري لمعان خاتمه وهو يتكئ على الباب الموارب منتعلا جزمته؛ ليفصلني عن الجزء الشاذ الذي دخلت فيه.

الصياد والطريدة كنت الصياد وإذا بي الطريدة؛ أربعة رجال وامرأتين ترى هل عاشرت زينب الثاني والثالث أم اكتفت بالأول، أنا اعرف ما هو بداخلي إنما هناك جانب نفعي واضح يسيطر على اللحظة معه أقوم بترتيب الأشياء التي ارغب في ا لحصول عليها وفق رغبات معتقد خلقت مبرراته.

التفتت زينب نحوي وهي تؤشر على ساعة معصمها مذكرة بالوقت قلت وأنا ازرع ابتسامة انتصار على وجهي: بقي اثنان قالت: نعم قلت: اثنان

عرفت إنها لم تفهم. رن هاتف خالد وأعلن انه مغادر لارتباطه برحلة عمل مع سعيد. رافقهم عباس للباب.

صاحب الخاتم امسك بكف زينب وسحبها خلفه التفتت نحوي مرتبكة، جاء عباس التقت نظراتي بنظرات عباس ابتسم ونهض لحقت به أخوض في أوحال المستنقع واخذ ينصب العلامات في مساحات جسدي الفسيحة وهو يطفئ الشعلة التي أحدثتها ذاكرة تربط بين رائحة الزهرة والمكافأة.

لا يمكنني أن أخبرك قالت زينب: وهي تقبع في الكرسي المحاذي لمكتبي في الإدارة التي اعمل بها وقد حصلت بعد جهد على رخصة فتح محل تجاري لبيع الملابس الجاهزة وأدوات الزينة النسائية في سوق تجارية جديدة؛ قلت: هل معك شريك يمكنني مساعدتك. ردت رأسها إلى الخلف ورتبت شعر رأسها بأطراف أصابعها وقالت: تحررت من ذاك الوجود الغريب والأليم الذي يقتحم حياتي ونهضت؛ غادرت مقعدي وسرت بجوارها وقد أعيتني الصور لمعرفة هذا التواصل غير المفهوم بيننا قالت: نحن نستطيع رؤية الأشياء وتذوقها فقلت: ونتشابه في كل شيء.

السحاب يبسط ذراعيه

دخل المستشفى ومع تكرار الفحوصات والتحاليل قرر الطبيب التدخل الجراحي فحالته خطرة وتستدعي ذلك، فكان علي التبرع بالدم كما هي العادة عند إجراء العمليات الجراحية من الأقارب والأصدقاء.

بعد إكمال اخذ الدم دخلت العيادة لعمل فحوصات عامه فموعد الزيارة طويل وعنده زوار تقلقني مقابلتهم، لتقول لي الطبيبة: مبروك آنت حامل في الشهر الثاني، الأمر كان مفاجأة ولم أرتب له وعلاقتنا التي اكتمل عامها السادس عمليا؛ وتقارب روحي منذ ثلاث سنوات لم يكن في جدولها هذه الحالة الخوف غدا ينبض في جسدي بدلا من قلبي المد نف مما أزعجني.

هو تجاوز الخمسين رجل أعمال ناجح في بداية حياته تفرغ لرعاية والدته وشقيقاته الأربع بعد وفاة والده؛ شقيقاته تزوجن الواحدة تلو الأخرى وغادرن لمدن أخرى، وبقي يتابع حال والدته خالة أمي، ومع نجاحه التجاري نسي أن يتزوج وكان تخصصي الجامعي في الحاسب فرصة عمل إضافي في شركته مع عملي كمعلمة.

والدته المقعدة ادخلها مركز اجتماعي للمسنين بسبب سفرياته، ووالدي بعد سجنه لمدة عام وفصله من عمله في قضية رأي عام، طلق أمي ورحل إلى لندن وخلى منزلنا من حراك الأقارب وشغلناه بسائقين الأول لمطالب والدتي والمنزل والثاني لمشاويري وتجوالي، وثلاث عاملات منزل من شرق أسيا.

ولما شعرت أن لا أحد عنده دخلت متوترة باقات الورد تحيط به وممرضة أجنبية خاصة تساعده على تصحيح وضع السرير، أخذت منها أقراص العلاج وكأس الماء تطلع في مبتسما وبعد حديث متقطع قلت: أنا حامل.. أغمض عينيه وارتعشت شفتاه. . قلت: حبي أنت قرين الروح وزوجي أمام الله وهذا يكفي؛ فتح عينيه واخذ كفي طوقها بكفيه وران الصمت الذي معه جاءت الممرضة لأخذه لعمل أشعة جديدة.

في التاسعة ليلا عدت للمنزل كانت والدتي تتابع حلقة من مسلسل في التلفزيون، وأطلت إحدى العاملات تخبرنا إن العشاء على الطاولة، تريثنا حتى انتهت الحلقة طوقتني أمي بذراعيها ودخلنا المطبخ حيث طاولة الأكل. وقبل جلوسنا قالت: عمتك خطبتك لابنها ولم تعلق كما هي عادتها عندما تأتي سيرة عائلة والدي أو تكمل طارحة رأيها الذي اعرف انه محرج.

في اليوم الثالث على اكتشاف الحمل وبعد اتصاله دخلت المستشفى في العاشرة صباحا كان في الغرفة محامي الشركة الذي يعرفني وأخر؛ ساعده المحامي على الجلوس وقال: هذه فضيلة الشيخ. . قال الشيخ: هل معك هويتك الوطنية . . أخرجتها من محفظة اليد تأملها ثم قال: حقا والدك غائب. هززت رأسي فواصل وهو يشير إليه هل تقبلينه زوجا.

خرج الشيخ ومعه المحامي طيلة الاجتماع لم أنبس بكلمة، كنت عند الشيخ وكيلة نفسي وعند الوصاية الشرعية هو وكيلي وكان المحامي الشرعي شاهد أول وطبيب المستشفى المشرف على حالته الصحية الشاهد الثاني، والظلام يخيم على الكون قال: فعلا أنت حبيبتي وزوجتي أمام الله وخوفا من نتائج العملية الجراحية ها أنت زوجتي أمام الناس.

أكمل شهرين في سريره الطبي وقرر الأطباء ترحيله لمستشفى متخصص في أمريكا وهناك لفظ أنفاسه، وعرفت وقد توزعت أسرته التي لم تعرف بزواجه ارثه، انه عمل حساب بنكي باسمي رصد فيه نصف مكافأتي لقاء عملي الإضافي ومبالغ أخرى هي نصيبي كما قال المحامي من أرباح عمله التجاري في بعض عقود المشاريع الحكومية والخاصة التي كنت أدون إحداثياتها وشقة في عمارة سكنية بشمال الرياض.

ولما لحظت أمي انتفاخ بطني حاصرتني بأسئلتها، فبسطة لها قصتي أخذت تبكي بصوت مرتفع وعصبية لم أعتدها منها وهي توبخني على فعلتي، وقاطعتني منكرة أمومتها وقرابته لنا؛ ولولا خوفها من القادم لطردتني من المنزل؛ وعند ولادتي كانت هي من اختار اسم ابني.

الأخوات الثلاث

في عصر يوم من أيام الشتاء القارس. وقفت فتاة صغيرة أمام واجهة المكتبة الصغيرة، وراحت تتفحص بعينيها الكبيرتين تلك الدفاتر والمؤلفات باهتمام زائد.. كانت تبحث عن شيء أو تفتش عن غرض .. وفجأة انتصبت بقامتها الصغيرة واعتدلت وقد ارتسمت على محياها أمارات الفرح والحبور، ثم ولجت إلى داخل المكتبة تسأل عن شيء ..

ـ عمي هل باستطاعتي رؤية هذه القصة المعلقة هناك ؟ ومد محمد يده وتناول قصة الأخوات الثلاث .. قدمها للفتاة التي صاحت:

ـ ما أجملها، هل هي للبيع يا عمي .. ؟

ـ أجل .. هل أرسلك أحد لشراء هذه القصة .. ؟

ـ كلا إنما أشتريها لأهديها لأختي الكبيرة التي لم تعد تستطيع الذهاب معي إلى المدرسة..

ـ بارك الله فيك ..

وحلّت الفتاة عقدة منديلها وأفرغت على المنضدة بضعة قروش ثم قالت:

ـ لقد حرمت نفسي من التفسح لثلاثة أيام مع بنات جيراننا ..

وألقى عليها (محمد) نظرة حالمة متأملة ثم أخذ القصة من بين يدي الفتاة وقد أدرك أنها لا تعلم ثمن القصة.. وكيف يصارحها بالحقيقة ويعلمها بأن قروشها كلها لا تكفي وأن عليها أن تنتظر أيضاً تسعة أيام أخرى حتى تجمع ثمن القصة.. ولكن نظرة الفتاة الهادئة الوادعة أيقظت كامن أشجانه وذكرياته، وحركت في صدره صوراً تنبض بالحياة .. وسألها:

ـ ما اسمك يا صغيرتي ؟

ـ نورة ..

ـ خذي هديتك واحرصي أن لا تفقديها في الطريق.. وانطلقت الفتاة خارجة من المكتبة بعد أن ودعت صاحبها بابتسامة حلوة تشع فرحاً، وأتبعها بنظراته حتى اجتازت الشارع العام بينما عصفت في نفسه أحزان فهيجت كربه، يا لها من فتاة حركت في قلبه جرحاً لم يستطع الزمن وأده..

ولكن ما أن أخذت الفتاة تعدو قاطعة الطريق العام، منحرفة في شارعٍ جانبي يؤدي إلى دار أسرتها حتى داهمتها سيارة "قلاب" مسرعة ..

منذ ذلك اليوم يتذكر ويستعيد تلك الحادثة التي أودت بوحيد ته حصة.. وما كان الزبائن القليلون الداخلون محله يشغلونه عن نفسه وللحظات رغم ما كان يبدو عليه من لطف وكياسة وإشراف، فلا يترك عمله في المساء حتى تصدمه الحياة بفراغها ومرارتها.

وتقدم الليل وخف إقبال الزبائن أو هو قد انعدم فتنفس الصعداء وأخذ يعد نفسه لإغلاق المكتبة ..

لكن إذا بأحدهم ينتصب أمامه.. شاب في ميعة الصبا .. فنظر إليه مستفهماً وخيل إليه أنه قد ألف هذا الوجه أو رآه من قبل.. وقبل أن يتفوه بكلمة مدَّ يده بقصة الأخوات الثلاث ..

ـ هل هذه القصة قصتك .. أليس كذلك ؟

ـ أجل ..

ـ إذن أنت تذكر لمن بعتها هذا المساء.. ؟

ـ بعتها لفتاة صغيرة .. !

ـ ألم تسرقها منك .. ؟

. لا ...

. وكم دفعت .. ؟

. ....

. نحن لم نمنحها شيئاً من النقود، فكيف حصلت على هذه.. ؟

. ولكنها دفعت كل ما تملك..

وأمام نظرة الشاب الحائرة المتسائلة شعر بشيء من الوجل والخوف فأمسك بتلابيب الشاب وصرخ فيه ..

. ماذا حدث ؟

. لقد دهمتها سيارة هذا المساء.. وهي تحمل هذه القصة الشرطة، يهتم بها رجال الشرطة، ولكن والدتي تساءلت عندما رأتها في يدي عن سر وجودها فأسرعت إليك ..

إنّـــه ولـــــد !

ـ أجل أنه ولد.. هكذا تدل كل الظواهر ..

بهذه الجملة أنهت فاطمة كلامها وهي تتجادل مع "أبو محمد" الذي أصرَّ على البقاء والتخلف عن العمل حتى يطمئن عليها . بينما انزوت البنات في ركن قصي من الدار يلعبن في هدوء وصمت خشية إقلاق راحة والدتهم المتمددة في الغرفة الداخلية بعد أن انهارت فجأة..

ـ إذاً الوقت حان.. ؟

ـ لا أدري .. ولكن أشعر بألم شديد يمزق أحشائي ..

ـ ما رأيك لو ذهبنا إلى المستشفى .. ؟

ـ لا . أرجوك .

ـ إذن نحضر الطبيب إلى هنا .. ؟

ـ لا مانع ولكن لم يحن الوقت بعد ..

وخرج "أبو محمد" من الغرفة ما منح "فاطمة" فرصة التأمل فرفعت رأسها إلى سطح الغرفة الواطئ وهمهمت.. إنه ولد .. لقد كان الوحم غريباً وكذلك الحركات التي تصدر من الجنين.. أجل حتى جارتنا الشابة أكدت ذلك عندما وضعت الملح على رأسي على حين غرة.. حقاً غضبت لحظتها لكن.. كانت الفرحة أكبر مما أتصور .. وهي تؤيد أحلامي .. آه .. ومرت سحابة من الألم على وجهها ولكنها لم تحاول وأد كلمتها الأخيرة .. إنه ولد .. أما "أبو محمد" فقد خرج لا يلوي على شيء محاولاً حصر تفكيره في المشكلة التي تطبق عليه بكل ثقلها.. ها هي "فاطمة" تتألم. وها هو "سمير" يساومه على ابنته الكبرى "إيمان" .. وها هو المدير الطيب ينقل من المكتب أشياء كبيرة أخذت تنهال عليه بقسوة وقوة فوق رأس "أبو محمد".. ولكنه يهمهم أخيراً .. إنه "محمد" لقد أصبح لدي ولد أخيراً وبعد سبع بنات.. أجل إنه "محمد" وليذهب "سمير" مع الشيطان وليطربق المدير الجديد المكتب بحثاً عن موظفه المهمل الذي يتغيب ولم يمر على استلامه العمل سوى يومين .. وعاد "أبو محمد" إلى الدار .. وقبل أن يلج الغرفة ذات السقف الواطئ صدمته صرخة "فاطمة" المكتومة فوقف قليلاً يفكر..

ـ أبي. أبي. .. إنها تريدك ..

ـ من؟ والدتكِ .. ؟

. أجل أرجوك بسرعة ..

ودخل الغرفة المظلمة وأخذ طريقه إلى فراش زوجته التي تكومت من شدة الألم في ركن الغرفة..

. ألحقني ..

ودخلت جارة الغرفة مسرعة .. ولم تلاحظ "أبو محمد" المنتصب في وسط الغرفة واحتضنت المريضة في هدوء ..

. أروح أجيب طبيب .. ؟

. آسفة مساء الخير.المعذرة. .. العتب على النظر ..

. أهلاً وسهلاً .. أجيب الطبيب ..

. انتظر .. ما رأيك يا فاطمة نروح المستشفى.. ؟

. لا .. لا ..

. إنه أفضل من هذا المكان .. وهناك تلقين من العناية الشيء الكثير..

ولم ترد فاطمة وبهتت الجارة من إصرار المريضة وتلفتت حولها تريد قول كلمة "لأبي محمد" الذي اختفى.. ودخل الدكتور مطأطئ الرأس وعاين فاطمة وهزّ رأسه وأخرج من حقيبته بعض المعدات والحقن..

. وما رأيك تروحي المستشفى.. ؟

ومرت موجة من الألم لم تفهم معها ما قاله الدكتور الذي سارع إلى حقنها بإبرة مهدئة وعاد الهدوء إلى الوجه المتقلص.. وشعر الدكتور بارتياح ساعده على معاينة المريضة وخرج من الغرفة وهو يقول ..

. بعد لم يحن موعد الوضع ..

. ما العمل.. ؟

. بعد ست ساعات تعال لأخذي من العيادة..

وغادر الطبيب الدار بعد أن نقده "أبو محمد" أتعابه مضاعفة.. وحل الهدوء بعض الشيء على الدار .. ومرت لحظات وجد فيها فرصة ليعود إلى أفكاره.. متأملاً حال زوجته والألم الذي تعيشه.. إنها ليست المرة الأولى التي تعيش فيها مثل هذه المتاعب.. ففي كل حالة وضع تقاسي .. لكن هنا فرق .. لقد انتهت التسعة أشهر وها هو الشهر

العاشر ينتهي والألم يزيد والدلائل تقول إنه.. وانطلقت صرخة من الغرفة الداخلية فلم يكمل بقية خواطره .. وهرول مسرعاً ..

ـ الجنين.. لا يتحرك ..

ـ و .. ماذا .. ؟

وخرج مهرولاً يبحث عن الطبيب .. ووجده لكنه اعتذر عن الحضور مدعياً أن الوقت لم يحن وأن لديه بعض الأعمال.. وأمام إصرار الطبيب أخذ "أبو محمد" يبحث في العمارة التي يسكنها الأطباء عن آخر متخصص في الولادة .. ووجد طبيبة المستشفى العام فقرع باب عيادتها..

ـ أرجوك أسعفينا.. !

ـ أمرك .. !

ـ إن زوجتي على وشك الوضع .. !

وأخذها إلى الدار رغم أنها كانت تتأهب للذهاب إلى المستشفى حيث حانت نوبتها في العمل.. وعاينت المريضة وخرجت من الغرفة صامتة ..

ـ هل في الإمكان نقلها إلى المستشفى .. ؟

ـ إنها لا ترغب.. وتصر على ذلك ..

وخرجت من الدار وأبو محمد وراءها، وأخذ سيارة أجرة إلى المستشفى، وهناك أخذت بعض الآلات التي تساعدها على إجراء عملية سريعة للولادة.. وطلبت من الممرضة المناوبة في المستشفى أيضاً مرافقتها..

وقف "أبو محمد" والبنات أمام الباب الخارجي مع أحد الجيران بينما دخلت الطبيبة والممرضة إلى الدار، ومرَّ وقت استطاع فيه إقناع جاره بأن ما ذهب إليه خطأ رغم انشغال باله بما يدور في الداخل.. وأطلت ابنته الكبيرة من فتحة الباب ..

ـ أبي .. أحضر سيارة .. الدكتورة تبغي تروح .. ولم يقل شيئاً وسارعت إحدى البنات الصغيرات إلى الموقف لإحضار سيارة أجرة، ووقفت الطبيبة ومساعدتها بالباب.. يتأهبن للرحيل .. وتقدم منهن ..

ـ مبروك الحمد لله على السلامة ..

ـ ولكني لم أسمع صرخة الوليد .. ؟

ـ البقية في حياتك لقد نزل الولد ميتاً..

ـ ولد ؟ .. و .. ميت ؟!

وأسرع إلى الداخل، ولكن الصمت صدمه فعاد أدراجه، ووجد الطبيبة والممرضة داخل سيارة الأجرة بانتظاره.

الانحدار

علمت مؤخرا بأنني ممنوع من الكتابة، اكتشفت هذا من همس حضور المناسبات الاجتماعية التي تقوم بعض الصحف بعمل لقاءات أو ندوات حولها من باب الالتحام بالجهات المعنية بالتطور الإنمائي فتغيب مشاركتي ويتجاوز تعليقاتي من خلال مطبخ النشر.

أخذت أفكر بقسوة في الانتصاب العدواني الذي مارسه شيء في داخلي دون مراعاة للظرف الذي أمر به والإرهاق الفكري الذي أعانيه بسبب عوامل عده منها العزلة والانحدار نحو الهاوية وحيدا متخليا عن كل المواقع التي استطعت مع الزمن ربحها.

لم أجد بعد هذه المرحلة أفضل من كلمة الربح لأن هذه الكلمة هي الوصف الحقيقي لكل المكتسبات التي خلقتها وحتى تكون المعادلة صحيحة، لابد من الخسارة وها أنا اركض في طريق الهاوية وكل ما أخشاه أن أرباحي تنتهي وبالتالي أفقد رأس المال وأشهر إفلاسي كما هو وارد في سوق الاقتصاد.

انتظرت كثيرا هذه اللحظة التي أقف فيها مستقبلا الضيوف. الأضواء تملأ المكان كما أنها تضيء داخلي بقوة، انه زواج ابنتي المكسب الأول الحقيقي في حياتي وبرغم الضياء اشعر إنني بحاجة إلى البكاء، وأخذت ابحث عن مكان منفرد حتى أحقق رغبتي في البكاء جميع الزوايا والغرف تعج بالزوار والمشاركين في المناسبة.

أنها تقف وحيدة.. دب هاجس أخر في داخلي وعدت إلى الحركة وقد أجلت رغبتي في البكاء، في داخلي نقطة داكنة أشعر بحرقتها وحجم مساحتها. العيون تتابع خطواتي تبحث عن الأشياء المربكة والناقصة في صوتي وفي اكتمال أدوات الحفل، وأنا افتح كوة للريح الطيبة لتعبر كواليس أعماقي المعتمة المتوقفة عن الاشرئباب والتجاوز. أنها النهاية الحتمية..

. حامد.. حامد

الصوت قريب أتذكره. إنما من يكون وقد تجاوزت عقدي الخامس، الشيب يملأ راسي ودمعة مازالت منذ عقد تستقر في مقلتي.

. حامد.. حامد

الصوت يقترب أكثر. انه يرفض كل الهواجس ويحقق الانتماء وطيب رائحة الوطن، الشارع المترب، بيوت الطين، وشآبيب المطر والأسقف الواطئة وقد أخذت تنز بالماء معبرة عن فرحها بالشتاء.

. حامد

. نعم

. مبارك.. زواج سماح

. سماح

الصوت يصل يأخذني بقوة إلى الزمن القديم الذي رفضته بتصرف أحمق ذات يوم، كنت اركض حتى تعثرت وقد تقطعت أنفاسي لأفيق على صوت سماح.. التي انتقلت معي إلى العالم الحر في هروب سحق وجودي، لتصبح وقد غدت شابة / أفنان / وامرأة مكتملة ناجحة في عملها.

الصوت يزداد معرفة وقوة. كان المطر ينهمر وسقف الغرفة ينز بالماء، دوائر الزمن تدور في رأسي وانهرت في مكاني ونقر الدفوف والغناء تشتعل في الداخل، وشبح الماضي المتناهي طولا يغادر المكان حاجبا الضوء المنتشر في كل زاوية.

(2)

طريق الانحدار عميق أطول من كل المعادلات الحقيقية. يخيم الهدوء عليه وكل الأشياء التي أتجاوزها ثابتة، شخوص آخرون توقف بهم السير في أماكن متباعدة، حتى الآن المؤشرات أفضل.. انه الوطن، أخذت اكتب الكلمة بأشكال متعددة وأقلام متفرقة وأحبار مختلفة، ثم أخذت ارسم حروف الكلمة كما يتم نطقها واو.. طاء.. نون.. واو.. طاء .. نون، ومع كل حرف أجتاز مسافة أكبر ويتكون في داخلي طاقة أكبر.

. حامد.. هل أكملت دراسة قضية الأستاذ فاضل

. قربت أنجز تدوين ملاحظاتي

. لقد تأخرت

. إنها ملاحظة ديوان المراقبة العامة

كان مدير الإدارة التي أنتمي إليها يستعجلني بمضاعفة الجهد لإنهاء دراسة أوراق قضية أحد أقاربه.

. الأستاذ حامد

. أهلا

. فاضل عبد الدايم

قفزت من مقعدي واقفا كمن لدغته افعى. ترددت في مد يدي نحو الكف الممدودة، هناك قوة تتعامل في داخلي فأخذت أتفرس في الوجه المنتصب أمامي وأخيرا صافحته مرحبا ودعوته للجلوس وواصلت كتابة ملاحظاتي.

. لو سمحت كرت العائلة

أخذت أطابق الأرقام والأسماء.. سماح زوجه.. سماح ابنة سعد. .. سمر.. واكتمل عدد الأسماء ومطابقة البيانات

. هل الكرت جديد

. نعم وهنا بين الأوراق صور من الكروت القديمة

ثم وقفت وأنا أمد كفي

. سوف يتم صرف باقي الاستحقاق بعد يومين

نهض وغادر الغرفة.. وعدت للأوراق.. اخذت ادقق في الأسماء المكررة ولما انتهيت سلمت الملف للمراسل لتوصيله لمكتب المدير العام لتوقيع أمر اعتماد الصرف.

. تفضل أوصلك

تزامن خروجي من المكتب مع تحرك عربة فاضل الفاخرة وآنا اتجه لعربتي الواقفة في فناء مبنى الدائرة، أرعبني الصوت، قررت أن أعود للمكتب، كانت تجلس في المقعد المجاور، شيء يدعوني لتلبية الدعوة، ابتسامتها الصغيرة تكبر.. أخذت أتراجع.. خطوة.. خطوتين، ابتلعني المبنى وأخذت جدرانه تسحق جسدي .

(3)

الزمن كان قويا.. قويا أكبر من عشق المكان. شعرت فيه بالإرهاب، عندما قررت الزواج جاء الاختيار وجاء الانفصال/ هربت إلى خارج الحدود لعلي أجد الهدوء الذي فقدته.

وتوقف الزمن. لم يعد الرفيق الحتمي الذي يسير كمرافق فعدت وقد غطى الشعر الأبيض رأسي، أنهم يدفعون الإنسان إلى الموت، حتى الأصدقاء.. كلهم عفن.. كلهم عفن

. أبي خير

. أبدا أنها ذكريات النزوح.. والوطن

سوف يكون لنا بيت

. أجل.. أجل

. وسوف نواصل

حطت الطائرة في المطار. لم يكن هنا أحد في صالة القادمين المكتظة بالمستقبلين.. المكان ضيق العيون تلاحق المتحركين ارتبكت خطواتي ومع ملاحقة سائقي سيارات الأجرة أخذت استنشق الهواء الرطب.

اختلطت الصور.. تتراكم الرؤى، الهاجس.. أكبر.. أكبر، واعتدت السكون القاتل، مشاركاتي تسحل على أبواب الصحف وان استشهد الكتاب بأفكاري.. ها هم جميعا في حفل زفاف افنان.

سوف اجلس وحيدا في الدار. ولكن الصوت القادم من الماضي سماح؛ وأخذت أتذكر الخطى الوئيدة، والجمع ينسحب بقيت جالسا على أحد مقاعد صالة الاستقبال حتى أحقق رغبتي المؤجلة في البكاء.

✿✿✿

الرقية

توقف عن التفكير وأخذ يقلب ما بين يديه من أوراق مهمة.

.كانت هنا البارحة

تلفت حوله أخذ يغير من جلسته بين وقت وأخر

قال بصوت مرتفع

. يا ترى أين اختفت

تأمل الجدران المحيطة به وأثاث الغرفة، توقع أن يقول له وهمه. إنها هنا، حرك يده اليمنى الم في داخله يدعوه إلى تحريكها بشكل آلي.

انفجر الموقف لم يعد لديه بصيص أمل في العثور على الصورة التي كل صباح يقدم لها التحية وفي المساء يقبلها وهو يغادر مكتبه.

أنها كائن حي. تمنطق الحياة ويزرع البهجة في داخله، تغرقه في دوامة من العمل الجاد والارتياح النفسي الكامل.

كل ما يتذكر أن ظرفا غامضا جمعه بصاحبتها فغدت زوجته، وكذلك ظرفا غامضا دفع صاحبتها إلى هجره وطلب الانفصال. ولم يتأخر في

تحقيق رغبتها لشعوره بأن الأمر سوف يصل إلى مرحلة يفقد فيها ذاته، وبالتالي يفقد الاحترام الذي تكنه له.

ولم يتبقى منها سوى هذه الصورة التي يجدها حجاب يحول بينه وبين نسيان وجوده؛ وحرز يقيه من المصائب والوقوع في الخطأ.

نهض من مقعده بعد أن بعثر الأوراق التي فوق المكتب وخرج لا يلوي على شيء وهو يهمهم

. إنهم ينتظرون حضوري

الطريق طويل والحديث يحتاج إلى اعداد. توقف أمام حاجز تفتيش للشرطة، لم يتبق سوى عربتين ويجتاز الموقع، فتح زجاج الباب المحاذي له، تابع بنظره الرجال المدججين بالسلاح

. أنهم ليسوا من رجال السير

توقف وسط الحاجز طوق العربة أربعة افراد. قدم لأولهم هويته بينما فتح الآخرون أبوب العربة فاحصين داخلها، انزل كفيه عن مقود العربة وضعها على فخذيه وقد طأطأ رأسه لحبس الخوف وحجز القلق حتى لا يفقده الموقف كيانه الإنساني، وإذا بشيء صلب يطعنه في جانب رأسه وصوت أجش يخترق عالمه المختفي.

. وهذه من تكون

رفع رأسه متفحصا مؤخرة البندقية التي احتكت برأسه. تذكر عصا المدرس الغليظة التي يلكزه بها هو ورفاقه في الفصل عندما يطلب منه أن يقرأ الدرس أو يعيده لما يمارس في الفصل من درس ليتأكد من متابعتهم .

تنبه وحدق في صاحب الصوت الواقف بمحاذاته. ارتبك وتأخر في الرد وهنا مد الرجل يده داخل العربة وسحب الصورة من تبلوه العربة وبصوت خافت

. أنها صديقة

كان يتوقع انتهاء التوقف وحالة التفتيش عند هذه المرحلة. غير أن الأمر تطور دخل العربة احدهم شاهرا مسدسه بينما صادر صاحب الصوت الخشن الصورة، لا يدري أين يتجه وكل ما تبادله مع مرافقه إشارات تدله على الاتجاه الذي يسير فيه حتى دخل سياجا من الأسلاك الشائكة ومرتفعات الرمل .

ترجل من العربة. أمام خيمة تبدل لونها بسبب الشمس طلب منه مرافقه الوقوف، أوصله تفكيره إلى الشعور بانعدام الاهتمام بما يدور في داخل الخيمة فأخذ يتلفت في سكون مستبينا المكان .

ولم يحس بأن أحدهم خرج من الخيمة تأمله قليلا ثم صوب نحو رأسه مسدسا يحمله وأطلق عيارا واحدا، التفت على أثره عنوة وقد أنبس الدم من صدغه، كانت الصورة تقف بجواره بكل عنفوانها. ثم انكب على وجهه.

❁❁❁

القطار

منذ زمن طويل تسرب قرف لا أدري مصدره إلى داخلي. معلنا رفض الكتابة عن انسحاقي فسحل ما تبقى من وجودي فوق شوارع مدينتنا حتى لا أستمر في الرفض الصامت لكل ممارسة غبية.

أستقل القطار المتجه إلى الشرق. بؤبؤ عيني اليمنى في محاولة تمويه لخرق الصمت، فإذا برجال وإناث يحملون معاول حرث الأرض ويرتدون خوذات الحرب يعترضون سبيله، وقد تهشم جزء من الخط الحديدي وجرى إشعال النار في حطام أشياء لم أستطع تمييزها، إنما أدركت أنها مكونات خاصة جرى نهبها .

شروع الحزن إلى داخلي اجتاح كل مقاومة للانبثاق. وبالتالي حرم علي التطلع إليها، سوى حلم يرافقني عندما امشي وحيدا أو حين أختلي بهمومي في ركن مهجور من المقهى الذي اهرب إليه كل ليلة .

ـ أين أنت يا رجل.. !

أمر غريب السؤال. فانا موجود وجود هذا المكان لا أحد يستطيع تجاوزي؛ هذا ما واجهني وأنا أدخل أحد المحلات التجارية، إذ نهض

صاحب المحل وأخذ يرحب بي وعندما لم اشتر شيء قدم لي هدية زدت تخاذلا .

. ابحث عن شيء تحت ملابسك

. وماذا تريد

. اعرف لون سروالك الصغير

استلقت على قفاها وهي تقهقه بهستيريا أحبها. فقدتها منذ إلف عام.. تذكرت الدم الذي تمدد في شوارعنا ابتداء من مدخل القرية الذي لم يصمد مقاوموه في وجه جنود الاحتلال، وهم يقتحمون كل شيء يطلقون الرصاص في كل اتجاه .

حتى نفقت الأبقار والحمير وأخذ الدجاج يهرب هنا وهناك في بحث مستميت عن كن أمن، والحمام يشكل مجموعات تهاجر سماء قريتنا كما هاجر شبابها منذ الاحتلال الرهيب وتركنا الجميع، لم يعد هنا غير إطلال ونحن الاثنان .

كنت اجلس على عتبة باب دارنا الذي تهدمت شرفاته. ومريم تجلس خلف إحدى الطاولات بمدخل المقهى الصغير الذي ورثته بعد مقتل والدها في الهجوم الأول للغزاة .

كان همي الأول معرفة لون ملابسها الداخلية. فقد لمحتها ذات ظهيرة تقوم بفرد بعض قطع القماش الصغيرة على حبل الغسيل فوق سطح دارهم من نافذة غرفتي منذ ثلاثين عاما، فأسرعت إلى الشارع واتجهت إلى الدار التي تقطنها مع أسرتها ولم اهتم بنداء والدها الذي يشرف على طلبات زبائن المقهى الذي يشغل الدور الأرضي من المبنى مع محل لبيع الفول والحمص .

أعرف طريق السطح. توقفت عن الغناء عندما وجدتني أمامها وأنزلت إزارها على ساقيها وذراعيها، اقتربت من سلة الغسيل وأخذت أساعدها كنت اختار الملابس الصغيرة ذات اللون المميز سرى ضحكها في جسمي كما شرارة لهب، فاستفزها ملوحا ببعض القطع الصغيرة قبل تمديده على الحبل وتطاردني عبر السطح .

. ماذا جاء بك

. لمحتك من نافذة غرفتي

. اعلم

. شيء دفعني

. إلى أين

. إلى هنا

كنا متجاورين نجلس على مقعد خشبي. بعد فراغ سلة الملابس وتبلل ثيابنا، كانت ترتعش، والعرق يتصبب من جبينها فأخذت امسحه بكفي وقد أسندت ظهرها ورأسها إلى الجدار المنتصب خلفنا، صدرها يرتفع وينخفض شعر رأسها القصير يندس تحت غطاء شفاف، أنزلت كفي فوق عينيها المغمضتين ثم فوق شفتيها وواصلت حتى هصرت صدرها.

كثيرة هي الأشياء المختفية في حياتنا. كان عام **1946**م مرحلة انفصال حقيقي لجميع الأسر، لم يتبقى سوى الجذور التي تنتصب فوقها قامات تجردت من الغصون وتشقق عنها من عوامل الطبيعة اللحاء. ما عدى اسر تعد على أصابع اليد الواحدة ما زالت لها فروع مثمرة لم تتأثر حتى من عام **1956**م ولكن نزفت الدم عام **1967**م.

. مريم في هذا المقعد كان والدك يجلسني

. وقدم الشاي مجانا

. تعرفين

.كان يقول لنا

. إنما والدتك اينها

. نزحت مع أبناء عمها

كل شيء مهدم تملأ المكان عفنا. قررت الهجرة بعد أن بدل الاحتلال معالم القرية

. لماذا لا نتغذى

. وعمال المنجرة

. غيابك لا يؤثر في جدهم

الفرح الذي توقعته وأنا اجلس لم اجده. سافرت عشرين عاما ولما عدت كانت موجودة، ها نحن الآن اثنان وحيدان كل ما حولنا بقايا ذاكرة، كانت تتحرك وحديثها يتواصل قررت مشاركتها الحركة قادني صوتها جاء ظهرها للباب مكونات جسدها تدفعني لقراءة تفاصيله وتخمين لون سروالها الصغير، شعرت بلفح أنفاسي التفتت ضاحكة طوقتها بذراعي تقابلنا في قبلة تأجل تنفيذها أربعين عام.

الرواد يتقاطرون. لم أكن أتوقع أن هنا زبائن ورواد فهذا الجزء القديم من القرية مهجور، شعرت بالغربة ومريم تختفي واحدهم يتسلل إلى الداخل طال الترقب ليخرج ثم يتسلل أخر لم يطل مكوثه عاد وتطل مريم التف حولها الجميع.

. أعرفكم يا جماعة على رفيق الطفولة مازن اسرته جيراننا..

انفرجت الوجوه التي لم تتجاوز رقم عشرة، مددت كفي التي هرب منها الدم مصافحا وغادرت المكان. لم اعد أذكر ماذا حدث. دوى انفجار هائل التفت فزعا وواصلت الطريق، عربات العدو تطوق المكان يصلني أزيز الرصاص خطواتي ثابتة واحد.. اثنان.. واحد.. اثنان، دخلت المنجرة التي ورثتها مع إخوتي عن أبي حشرت جسدي خلف المكتب وطلبت من صبي المقهى الذي اقترب لما وجدني شايا وأرجيلة .

توقفت عربة الشرطة أمام باب المنجرة. ترجل منها الشرطي دخل المقهى ثم عاد وتجاوزني دخل ورشة المنجرة وخرج وهو يمسك بعامل تجاوزني الاثنان وركبا العربة التي غادرت الشارع بصوتها المميز.

أخرجت من جيب القميص منديل قماش لونه أحمر. مسحت به وجهي وزجاج النظارة ولما أعدته إلى مكانه، أخذت أصدر صوتا كصوت القطار تركت مقعدي غادرت المنجرة متخذا مسار سيارة الشرطة غير مبالي بنظرات من اجتازهم.

❁❁❁

فرشاة إله الرعد

عندما حملت شهادة التخرج من الجامعة مشحونة كما عنقاء ملتهبة بجناح يلامس الماء وجناح يبلغ السماء بقدر كبير من الفعل الذي في إمكاني التحكم فيه، فقد ابتدعت طريقة تصنع الكائنات الحية في داخلي، أنفسها بطريقة تسمح بظهور العيوب حتى يتم إصلاحها وفق قانون خاص للمقاومة، كانت هدية الأسرة زوجا لم يفكر في تخصصي أدب انجليزي، ولم يمنع اشتغالي بتنمية هوايتي كفنانة تشكيلية وأنا أرصد جملة استخرجها من الذاكرة عندما أتوقف من التعب (آه أيها الرجال البائسون الذين تحطمون نوعكم بالذات من خلال تلك المسرات المراد منها إعادة الإنتاج، فكيف يحدث أن هذا الجمال المهلك لا يجمد شهوتكم المتوحشة؟) فأستعيد نشاطي لمواصلة سحق روحي في الألوان وفرشاة تعانق بياض اللوحات.

إنما لم يشغل نفسه بتحقيق رغبتي في العمل في بيئة تتسم بالمنافسة الشديدة، غير مبالية بالنزيف في الأدمغة التي تعيق دخولها المعترك متطلبات معقدة تفرضها رعاية وهمية تراه خلل في طموح المرأة. فكنت

أقدم خلاصة معرفتي بين وقت وآخر في تقديم درس لغة انجليزية وأحيانا تربية فنية في مدرسة أهلية تعمل بها شقيقة زوجي.

ذات مساء جاء زوجي متهللا فقد عاد من بعثة للدراسة صديق طفولته، فكان حريا عمل حفل عشاء بهذه المناسبة، جاء الضيف مع زوجته وابنتيه، الكبرى في العاشرة والصغرى في الرابعة؛ أثر الغربة في حديثهم وملبسهم، الأم برغم تحفظها شغلتها لوحة رسمتها تأخذ حيزا بارزاً من غرفة الجلوس.

بعد أيام أخبرني زوجي برغبة صديقه في مساعدة طفلتيه بالحضور معهم في دراستهم حتى أساعدهن على اعتياد الفضاء المدرسي، كانت ابنة العاشرة تقاوم ما حولها وفق تحرك حجارة رقعة الشطرنج، وأجدها بمهارة اللاعب تعرف وجهة كل حجر، تقترب أكثر مني لتشاركني خصوصياتي، وذات مساء وأنا أساعدها في حل واجباتها المدرسية اقترحت أن تكون موديلا أرسمه في لوحاتي القادمة؛ فاتحت أمها في ذلك، لم تعترض على الفكرة.

لما اكتملت اللوحة زرعت الأم على خدي قبلة طويلة وهي تحمل اللوحة لتعلقها في غرفة نوم الابنة، ولتطلب مني بصوت هادئ وطريقة خافتة الإيقاع لشخص أمضى وقتا طويلا يتحدث إلى مطلبه بصرف النظر عن

الدافع لرسمها؛ لم أتردد في إعداد لوحة جديدة وجاءت لحظة البدء لمناقشة الشكل والحالة التي نتشكل فيها لفضاء رحب من التواصل.

هنا طفا على السطح أحداث تجاوزتها في رحلتي الدراسية، وعنونتها في لوحات بفرشاة إله الرعد. تلون فضاءها صديقة مفترضين أننا نهمهم ونحن نضبط نغمة حياتنا على ترددات نبوءة معرفة الروح الصحيحة. جاء اقترابها عنيفا في المرحلة الثانوية بعد انتقال المعلمة التي تعشقها لمدينة أخرى فكنت البديل الذي مارست معه لعبها؛ بذاءة تلذذي يثير شغبها ويدفعها إلى إيثاري بعنايتها وحراستي من الأخريات فخلقت ونحن في الجامعة نوعا من التواصل الرومانسي بأخيها الذي يعيدني للمنزل من الجامعة عند تأخر والدي، لم يتجاوز في التقائنا في مقهى ومطعم في لحظات مختلسة الحديث عن أحلامنا وهمومنا الجامعية.

ذات مساء وزوجي مسافر في مهمة عمل جاءت، لتحول الموهبة الخاصة لدي إلى انجاز أدركت أنها تعرف كل شيء عني وعن تأخر الحمل واستشعار مخاض الولادة وصمت زوجي، فأنا في مخيلتها الأرض القفر، كانت تحمل كتاب شعر يحوي رسوماً مختلفة تتواكب مع مضمون كل نص، وقد ثنت طرف صفحة تحمل صورة امرأة تفاصيل جسدها المكتنز تتجاوز إطارها.

تستعين بمساعد لها لتسهيل مرورها بيسر ودون مساءلة إلى مرحلة دقيقة لشخص تراه مطلع، والعارف بما يتعامل في أعماق محاوره؛ ونحن ندخل المرسم وقفت أمام اللوحة البيضاء المعدة للتشكيل وتناثر الألوان، ثم التفتت نحوي كانت نظرتها تائهة في البعيد وكأنها في مكان تنتظر الصانع الأزلي المقيم في الغابة الزرقاء.

قالت بنبرة مطيعة: أين أجلس؟

قلت: (وأنا أسحب معطف الرسم حتى لا ألطخ ملابسي بالألوان) هنا.

اقتربت مني تساعدني على لبس المعطف، أنفاسها تلفحني، توهمت أن شفتيها تدغدغ مؤخرة رقبتي فازددت بهجة، عدت ضمن صبية يلعبون في غابة غناء متناسين القوانين وقد جمعت التين ألشوكي أشدو بأغنية أحب ترديدها. سمعتها ذات يوم فحجبت كل الأصوات؛ توقفت عن الحركة اكتشف شيئا أعمق في عقلي بصوتي فابتعدت وهي تتشكل.

قالت: ابنتي تحبك.

قلت: إنها رقيقة وتدفع من يتعرف عليها إلى عشقها.

قالت: كانت الأثيرة في مدرستها هناك.

أكملت ربط حزام المعطف وشرحت لها كيفية الجلوس، وأنا أنثر شعرها تجلت صورة صديقتي التي أحتفظ بعديد من صورها الفوتوغرافية واللوحات المختلفة التي كانت تمنحنا خصوصيتنا التي انقطعت وأنا في المستوى الثالث من الجامعة بسفرها المفاجئ مع والدتها المريضة للخارج فانقطعت أخبارها.

كانت مغمضة العينين تتنفس بهدوء وكفها اليمنى تتصلب على طرف المقعد بينما الكف الأخرى الرابضة على فراغ المقعد الذي كنت أتمدد عليه عند التعب تتحرك ذهابا وإيابا تنتظر الحركة الأخرى، جلست بجوارها تعانقت كفينا على المقعد لاصق كتفي كتفها، التفتت نحوي طوقتني بذراعيها كل شيء فيها يبكي.

تأخر اكتمال الصورة وتناثرنا في فضاء المدينة كل ما نفعله يتجدد في زيادة مساحة انشغال زوجي وزوجها، والى استراحة صغيرة في شمال الرياض حملتنا سيارة أجرة خاصة (لموزين) وأنا أنصت لغيابنا بحثا عنما ينبغي الآن أن يولد في ذاتي التي بعثت. سبحنا ومن الإرهاق نمنا وإذا بصوته يدعونا للعشاء.

قالت: صديق من أرض الغربة.

قلت: كيف؟

قالت: إنه من هنا رجل أعمال ومغني اسمه الحركي يثير الانتباه.

ونحن نجلس حول طاولة الطعام عرفت أنه يملك المكان وأنه تعرف عليها في حفل المعهد الذي درس اللغة الانجليزية فيه أثناء دراستها في بداية اغترابها وتكرر سفره كاسبا التأهيل في برامج ودورات تنمي هواياته ومشاريعه التجارية.

يتساقط مطرا وتتجاوب ضربات قلبي مع حاجات لا تتغير في أن أقضي من هذه اللحظة حاجاتي وفق الأنا متجاوزة النظر عمن ستلحق به السعادة ومن سوف يرث البؤس، فالسعادة لذة والبؤس ألم، واللحظة لم تترك سبيلا للتصرف، فعلي اعتبار اللحظة قيمة ذاتي المنسابة فأنا الآن ريح مشاعر عارية كنت أنحني بحريق مضاعف لميلاد جديد في كون باهر.

وفي العشاء الثالث شاركني في رسم لوحة جاءت الفكرة فيها عبر ريشتي كما أتخيل اللحظة وبريشته كما يتخيلها، معها تحولت الاستراحة إلى مرسم بديل. ولما اكتملت اللوحة جاء احتفالنا متجاوزا المتخيل، لم يكن رجلا ممزقا بين امرأتين، بل نحن الثلاثة نشكل حالة صعبة غير أنها تأتينا بالسعادة؛ تحدثنا أكثر مما ينبغي لم أفكر في احتساب الأمور؛ رأيتها كيف استسلمت بوهن كانت مفعمة بالحنان ودافئة.

ولما طال سفره في رحلة عمل شعرت بقلق في انعدام القدرة على التعبير مغيبة الوعي من فرط الاستغلال الذي لم تواجهه. والاستنزاف القهري بسبب خلل هيكل القوة في داخلها مما يعني انجرافها للقاع، فأخذتها في جولة بأحد الأسواق ثم جلسنا بالمقهى ليقتحم طاولتنا من أثار عجبنا، ابتسم من غير أن يلاحظ انزعاجنا.

قال: كنت أراقب تجوالكم.

قالت: لم؟

قال: لفت نظري تعانق كفيكما.

قلت: وما شأنك؟

قال: أنتما عاشقتان وأنا عشقتكما.

جاء صمتنا متوافقا مع استرساله في الحديث واكتشاف مخزون كل وأحد، ليس فيه ما هو كئيب أو خفي يفرض الاقتراب منه بحذر. دفع حساب القهوة وبسكويت البيت فور غادرنا السوق عربته الفارهة لم تغير من وجهتنا وحديثنا فلم يعد هناك ما يتوجب التفكير، طالت الطريق بسبب إشارات السير وازدحام الطريق وفي جنوب المدينة وعبر شوارع ضيقة شديدة الظلام فتح مدخل سور تغير لونه بفعل الزمن لندخل (استديو)

خاص غرفة ومرسم يتوسطه حامل يحمل لوحة لم تكتمل ولوحات متناثرة على الجدران، ومكومة على الأرض في تشكل بديع لنبع يضم كل الأحلام والأشكال التي تنتظم الحياة التي أعيشها متجاوزة النسيان في تقاطعات طريق مفتوحة وواضحة سرت فيها لا شعوريا ذات مرة في الفجر تسوقني دمدمة ولعثمات لأجد كل شيء، أحبني المكان والزمان فتعانق النور في داخلي زارعا أشياء لا تنسى.

جلست وجلست حول طاولة تداخل لونها مع بقع أصباغ تراكمت بعفوية، وجاء حاملا زجاجة مشروب لم تفتح وثلاثة كالفراش. على المقعد المقابل وسكب قطرات من المشروب تجرعت كأسي كانت المرة الأولى التي أتذوق فيها الخمر؛ وتجرعت كأسها، أشعل التلفزيون كانت قناة موسيقى غربية، قامت ترقص شاركها الرقص وشاركتهم بالتصفيق.

كل شيء فينا يتداخل ولما تنبهنا للوقت اتصل بهاتفه فجاء من أخذني وصديقتي لما دخلت المنزل وجدت زوجي في الفراش. تمددت بجواره التصق جسدي المبتل بجسده عاد تصبي المتبلور عبر متاهات أزلية تهيم بها روحي منذ جاء الكون فقد حزرت الحقيقة.

عرفت أن صديقتي وهي تهبط من السيارة تعثرت فساعدها السائق الأسود على فتح الباب وفي المدخل المعتم وهو يتفحص مفصل قدمها

المتأملة ضاجعها مراهنا على السكون الذي اكتشف أهميته؛ وتركها في مكانها لتجد الخادمة التي انسلت من غرفتها في سطح المنزل لأخذ ماء بارد من ثلاجة المطبخ تقف فوق رأسها فساعدتها على الصعود إلى غرفتها. شعرت ببعض الاستياء أهو الامتثال ألقسري أو الخضوع الذي يجتر المرء عبره هزائمه الخاصة وفق التصور الساذج والمضلل. غير أنه كان طفيفا إلى حد انه فاجأني هذا الإحساس البليد.

اكتملت الصورة التي اعتنيت بألوانها ولفتت فنياتي نظر صديق زوجي الذي نقل إعجابه بموهبتي زوجي، فقد امتزج عملي بالمعرفة ووصلت نفسي باله ممزوج بالمطر معه ذلك الرضا الضروري من أجل أن تشكل هذه التجارب الأكثر اهتماما بالاتجاه الوصفي شعورا مستقرا في زمن متحرك، فجمعت حصادي بفرح الأماني التي معها تجاوزت جوعي.

أوراق من مذكرات فتاة فلسطينية

(1)

وأنصت .. نعم اليوم اقترب والجموع تعد العدة، فالدعوة مفتوحة للجميع، كل شيء ممهد، وخط طويل يسيطر على الجميع.. المناكب تلتقي، والمقل شارقة بالدموع، بالأمل، بالنهاية السعيدة .. كل ذلك منذ عام ..

وها هو يمر بنا عام ..

والجوع ينهش صدري .. يمزق أحشائي بعد أن أعياني الانتظار، بعد ان وجدت دارنا تبتعد .. تسبق الشمس الغاربة .. يبتلعها مد البحر العاتي .. فإذا بي أعود إلى خيمتي، وقد لفت انتباهي مجموعة من صبيان المخيم يتهامسون، ثم ينطلق كل في طريق وتبتلعهم الزوايا.. وتمر الدقائق، وإذا بحركة غريبة ومجموعة من الرجال يقتربون يحملون شيئاً.. كان ابن جارتنا العمياء، وقد فارقته الحياة، وبسمة لونها الألم فوق فمه الصغير..

خط طويل يسيطر على الجميع، خط من الدم يقبل الثرى، يشير إلى دارنا القديمة، إلى قريتنا الخربة في أرضنا المسلوبة..

(2)

ماذا يعني كل هذا ؟ الطبل تقرع، تصم الآذان، تكون شلالاً من الضجيج، وأنا ما زلت واقفة أمام باب خيمتنا، أستجدي المارة .. أخي الصغير (ضاع)، كان هنا في الصباح يلعب بدميته القديمة، يصرخ في بائع البرتقال الفتي ..

ـ لماذا لا تنضم إلى الفدائيين ؟

لماذا .. لا تترك عربتك المتداعية هذه جانباً.. ؟ وها هو يطالعني .. بائع البرتقال..

ـ أخي .. هل رأيت أخي ؟ ..

وألقى الفراغ في عينيه .. لم ألق غير الصمت الرهيب .. لقد عاد آخر الليل طفلاً محمولاً أخذه الرجال إلى البعيد .. إلى سفح الجبل، الذي يحجب عنا الرياح، ينتظم في سلك الشهداء من رجال الفداء ..

كان صبحي قد تخطى الأسلاك الشائكة فإذا بقميصه يعرقل خطاه وتخترق صدره رصاصة الغدر والخسة والنذالة. والإجرام. ..

(3)

إنه اليوم الألف بل المليون .. وأنا أشعر بساقي لا تطيقان حملي.. أمي الربو يكتم أنفاسها.. أبي كالمجنون في ركن خيمتنا، يهمهم بكلمات لا تفهم.. (سماح) تبتسم للجميع، إنها طفلة لا تفهم.. وبطاقة المؤن الصفراء يأكل أطرافها القدم .. وهم يعصرني أن في أحشائي جنيناً .. ترى .. ؟ أيشاهد أباه.. ؟ ماذا أقول له عندما يكبر ؟ عندما يقول أين أبي ..

هل أقول استشهد عن طريق العودة ؟ أم أقول له ذهب ولم يعد، ولكن هناك سؤالاً قد يواجهني به ؟

أهو ذهب لوحده، أهز رأسي بلا إيجاب، أيصدق أن أباه ذهب لوحده ليمهد طريق العودة.. ليصرخ في اليهود هذه أرضي.. اخرجوا منها، أترثونني ؟ أتأخذون حقا ابني.. ؟ غريبة كل شيء أم تراه سوف يجف حلقه ويكتم أنفاسه انتظاري الطويل في طابور دقيق السوس.. ؟

(4)

جارتنا (سلوى) لم تعد مساء أمس من صنبور المياه، أمها تبكي بحرقة، وكادت تزيد آلامنا إذ همّت بإحراق الخيمة، ولكن لحقت بها وأمسكت بيدها المرتعشة، واغتصبت علبة الثقاب من بين أنينها، لا حق لي في استعمال قوتي وشبابي على امرأة شرب الدهر من دموعها، أكل جسمها حتى بدت الغصون ترسم ظلم القدر ..

مرَّ يوم وسلوى ما تزال مفقودة وأنا أشعر بوحدة.. أبي أخذ هذيانه يزداد، بل فقد إحساسه فكان ينام .. وسماح تتوسد صدره ..

ماذا بقي لي غير أن الغثيان يدفعني إلى القيء وأحشائي تسبقني في كل ناحية..

الليل ساعاته طويلة.. آه ما هذا الألم.. ؟

(5)

عدت إلى رشدي .. طالعتني مقلتي أبي الدامعتين، وبسمة واهية ترف على حاجبيه.. أشعر بشيء غريب حولي .. وإذا بالصراخ يصدمني، لقد وضعت البارحة .. ولكن هذا الظل الطويل الذي ينتصب على باب خيمتنا أني أعرفه.. الفرحة تأخذ بمجامعي .. الدموع تسبقني .. وتقدم نحوي عاقداً زنديه على صدره يحمل لفافة بيضاء .. كان زوجي (منصور) وبريق الفرح يطل من مقلتيه .. وتلاقت العيون في عناق طويل .. قرب طفلي مني ..

ـ قبليه ..

إنه عودة .. نعم سوف يكمل طريق العودة .. إن استشهدت اعتني به، أعديه لليوم المرتقب.. ازرعي في صدره خنجراً يصرع الأعداء القادمين من وراء البحار النتنة.

(6)

اليوم معركة من الصباح، الحشود على الحدود، الطائرات تلقي بمنشورات تدعو المواطنين إلى الهدوء، والتمسك بالسكينة، لكن ما هي السكينة ؟ وأي شيء بقي لنا بعد أن فقدنا بياراتنا .. دارنا المعلق فوق الجبل الأشم ؟ طفلي (عوده) أخذ يبتسم لي، يبحث بين الوجوه عني .. لقد غابت عيناي وبرزت نواجذي .. لا خبر عن منصور .. الطلقات تحملها الرياح من وراء الجبل .. غارة.غارة. .. السماء سوداء.. الطائرات تلقي بالحمم.

رحماك يا رب إنني بائسة . إلهي لا شيء بيدي.. وأمسك بيد سماح .. أحمل عودة .. أجري وراء أبي الأعمى، لقد سلب البكاء من عينيه النظر.. الصراخ يرتفع إلهي أين أبي؟ ..

ونعود نبحث بين الرماد عن البقايا.. وينطلق المذياع المجنون .. لقد قام الجيش الباسل بحملة تأديبية على أوكار المخربين وتم القبض على مجموعة يرأسها المدعو محمود الشيخ عرب .. يا للمجرمين .. إنه أبي الأعمى المتداعي .. إنه جد (عودة) .

(7)

الجوع ينهشني .. لم يبق في مقلتي دمعة وأنا أودع – عودة – عند باب ملجأ الأيتام، سوف تنسيني الأيام والهموم والمتاعب التفكير فيه.. غداً ترحل المجموعة الأولى من النساء إلى الشمال إلى مخيم جديد نصبته الأمم مؤخراً بالتعاون مع الصليب الأحمر .. والحكومة رشفت آخر جرعة من ماء النبع الذي يوازي مخيمنا المحترق .. إني أشاهد ظلاً كبيراً يقترب .. الظلال تلف الجميع .. المطر ينهمر، إلهي ما كل هذا ؟ أطلقت صفارة الإنذار .. أظن خطأ .. ما سمعنا ليس سوى لغم أرضي أعده الفدائيون.. إنه بقايا لغم من عام 47، لا من ألغام 67 الجادة الحاقدة التي تزرع الموت في كل زاوية.. ارتجت له الديار الفلسطينية .. سمع صداه المغرب العربي، ثارت لأجله أمواج الخليج العربي ..

وشعرت بالجوع .. وأنا أتلفح بثوبي البالي لأسير وحيدة في الطريق الطويل وقطرات من الدم تدلني طريقي.. إنها الزهرات التي خلفتها قطرات دم أخي ذات مساء ..

(8)

الحقد.. الحقد يزرع صدري شوكاً .. يدفعني إلى التقلب كل مساء في فراشي البالي، لقد كانت رحلتنا طويلة.. وكان حظي أن تضمني خيمة عجوز وابنها المريض الذي يجهش كل لحظة بالبكاء لفقد المقدرة على المشاركة في الجهاد المقدس في سبيل الوطن..

كان يبكي وأنا أنصت لبكائه المرّ، ثم أواسيه وأنا أزرع الأمل في صدره، لكن يده تبدو كأنها وحش أسود معروفة متصلبة الأصابع.. ألمحها كل دقيقة في منامي، وأتخيل منصور وهو يبكي حاله.. وفي لحظة غفوت سرقني شعوري، شعرت باختناق، شعرت بأنني أقترب من هاوية، والهاوية تبتلعني على الرغم من مقاومتي، وأصرخ .. وأصرخ .. وإذا بيد حنونة تهزني..

ـ ماذا جرى يا بنتي.. ؟

وتملكني تفكير عميق: ماذا يعني هذا.. لعله خير .. وكان البصيص الأخير .. كان البيان السابع عشر يرثي منصور.. ويصف الموقف البطولي الذي عاشه أبو عودة وهو يحمي ظهر رفاقه المنسحبين ويده على زناد رشاشه يحصد العدو، لكن طائرات الهليكوبتر لم تمهله .. ألقت بحممها

فوقه فانكفأ على وجهه يقبل الثرى الحبيب، يسقي عرق البرتقال .. بدم عربي جديد استشهد ..

(9)

الحقد يلف خطاي .. يستأثر بلحظاتي، والدموع تضيع معالم طريقي، لم يبق لي أحد، العجوز تدعوني بابنتها، تسألني لماذا تخليت عن عودة .. تسألني عن طريقه حتى تحضره إلى خيمتنا .. وأنا أبكي رسمت لها الطريق ..

ـ أتتركين ابنك من أجل ابني .. ؟

وتغلق فمي بيدها بينما تشير بيدها الثانية على ابنها .. وفهمت مرادها وأنا أقبل رأسها أدعو لها بالسلامة .. مرت لحظات رهيبة وأنا أقف على باب الخيمة أسأل السماء عن سبب الوجوم الذي يسربلني، يرسم الحيرة في حركاتي وتطلعي بلهفة لنهاية كل صرخة تصدر من المخيم.. فهذه أم تبكي ابنها الذي مات فجأة، وهذه ثاكلة تندب زوجها .. بينما مذياع شاذ يحاول أن يسيطر على الجو الحزين بأغنية راقصة .. تقطر بالضياع والحب والهيام الماجن .. كي تكمل بقية نشرات الأخبار فتؤبن الفدائيين المجندين فوق الربا المكشوفة .. وإذا بي أبكي وأجد أن

همومي تنقشع وأنا أسمع تنهيدة مكلومة تصدر من صدر مريض .. وهو يحاول النهوض .. لكنه يعود للبكاء وتلتقي دموعنا ..

✿✿✿

حـــلـــم

أنت نزق .. أنت لا تهتم بالأمر سيان عندك وقفت أمام الباب أم قفزت من نافذة في الدور السابع، تحاول أن تكون لا شيء، ومع ذلك تغلي من داخلك..

أنـت حقـود .. وفي الوقـت نفسـه جبـان .. كـل همـك أن تكـون وحيداً أمام نفسك وأمام الناس، تستمع في صمت لكل ما يقال، ثم ترسم ابتسامتك الباهتة.. أو خنجرك المسلط..

وتلفت غالبا يبحث عن المتكلم.. لم يكن هناك أحد سوى الكتاب الـذي بـين يديـه، والراديـو الـذي غلـب عليـه التشـويش فيـه علـى الأغنيـة المذاعة فلم يهتم بتعديل المؤشر.. وجدران الغرفة الأربعة، وبعض الكتب المتراكمة فوق الطاولة الصغيرة، وبعض الأثاث المتناثر هنا وهناك..

وعاد للكتاب وقلب الصفحة ..

أنت ساذج هكذا .. إنها الحقيقة، وتحاول أن تخلق من نفسك شيئاً جديـداً ونادراً، صـلب لا ينكسـر، ولا يتـأثر بعوامـل الجـو، لمـاذا تكـره

الصفرة في الرز، ولا تهتم بأخذ السلطة ذات الطعم المز .. لماذا تكره الليمون والشطة.. ؟

ـ أأنا أكره الليمون والشطة ؟

وصمت منتظراً الجواب، لكن لم يكن هناك من يهتم بذلك فأغلق الكتاب الذي بين يديه ومد يده بتكاسل إلى الراديو، وأخذ يعبث بالمؤشر ويتطلع في ساعته .. لقد كانت التاسعة وأغلب إذاعات العالم تقدم نشرات الأخبار، وأخذ يبحث في جنون وسرعة عن إذاعة، ولكن كان كل شيء موسيقى وتشويشاً ومؤثرات خارجية تزيد من وجع الرأس وفي نرفزة أغلق الراديو، ثم تمدد في الفراش .. ضايقه الضوء، فمد رجله إلى زر الكهرباء وسرعان ما سبحت الغرفة في الظلام .. ويتحسس اللحاف بعد أن دب الخوف في أوصاله وغطى وجهه وقدميه وكل أطرافه..

حاول أن ينام وعاد إلى أحلامه.. إنه وحيد منذ تركته نوره مع هواجسه وأحلامه، لقد قررت عدم العودة بعد أن شتم أصلها وفصلها في حالة غضب وتأسف على زواجه منها رغم أنه وفي خلال أربع سنوات كانت كل المبادرات تجيء منه هو.. لم ينس في يوم أن يقول لها كلمة شكر في هدوء ورقة.. ولكن ماذا أغضبها .. المرتب الصغير .. لا أظن، فكل زوجة ترضى بما يقدمه لها زوجها ولو كان خبزاً وماءً.. هل هو شتمه

لأسرتها .. قد يكون ذلك مجرد حدث طارئ لا بد أن في الأمر شيئاً ما.. ؟

إنها المائتان ألف ريال، ولكن له أكثر من عشرات السنين وهو في كل ليلة يرجو الله أن يمنحه هذا المبلغ ليعمل كل شيء .. ليشتري سيارة ويقتني بيتاً ويرفه عن نفسه وعن زوجته .. لكن لم يتحقق شيء من ذلك.. إنه موظف منسي ومجمد، لا يتغير ولا تتغير مرتبته منذ توظف.. منذ مليون عام وكل شيء كما هو..

والراتب لا يبقى منه عند توزيع حصص البقال وإيجار الشقة والأكل سوى ثمانين ريالاً.ز يدبرها حتى يحل مرتب الشهر الجديد ولم يتغير الحال ..

هل هذا هو سبب غضب نوره .. ؟ إنه مبذر، هكذا قالت، وما زالت تقول إنها تحلم مثله ولكن ليس بمائتي ألف ريال.. إنها تحلم بدار لها ولبناتها، دار ولو من غرفة واحدة.. تجعل الاطمئنان يسري في عروقها، يشعرها بأنها ربة البيت وأنها كل شيء..

ويرتفع صوت جلبة وضوضاء، يقفز على أثرها غالب من الفراش، ويضيء النور، ويأخذ في التجول بين الغرف لمعرفة مصدر الجلبة، ويقرر إقفال المطبخ والحمام بالقفل، وكذلك الغرف الأخرى حتى الباب

الخارجي أقفله بالمفتاح .. وعاد إلى الفراش ودفن رزمة المفاتيح تحت المخدة التي يضع رأسه عليها ..

احتضن الراديو .. وأخذ يبحث عن أغنية تشاركه وحدته في هذه الساعات المتأخرة من الليل..

وارتفع الصخب

إني أموت .. كلهم لا يدرون ما بي، وما أعاني، ألم يهتزئ جسمي، والأفكـار الملعونـة تسـحق هـامتي، تشـنق كـل محاولـة للهـدوء تطـرق بي، السأم يكبلني .. الضجيج مزروع حولي، والوقوف أمام النافذة أو الجلوس على عتبة الدار، والرد على تحيات المارة لا يفيد شيئاً ..

علـي أن أعـود لأتمـدد في فراشـي، أو الجلـوس أمـام درج أشـرطة المسجل للبحث عن شريط قد لا أجده، ولكن ماذا في الأمر ؟ وجدت هـذه الجملة فـوق الجـدران أمـامي تلفـت انتبـاهي، كمؤشـر سـيارة صـغيرة تحاول الانحراف، وأخذت أفتش جيوبي، كانت هناك قصاصة تقول: الأخ أحمد، فكـرة القصـة لطيفـة وذات مغـزى.. فقـط تحتـاج إلى بعـض التركيـز، عاود قراءتها لتعرف ذلك ..

أين التركيز الواجب تسجيله .. نحن نعيش التدهور .. لقد فغرت الهاوية فمها منذ مليون عام، ولا زالت تستقبل المزيد، إني أقترب، الخطر يحدق بي مـن كـل مكـان وعلـي أن أسـجل شـيئاً قبـل أن تتلقفـني الهاويـة، وأستقر في القـاع، ومـاذا أسـجل ؟ مـاذا في الأمـر؟ وتطـل جميلـة بوجههـا المعروف، ويدها النحيلة وشعرها الأسود رغم السنين، وقد افترَّ ثغرها عن ابتسامة لتضع أمامي دله القهوة مع فنجان واحد..

ـ إني ذاهبة ..

ـ ألا تشربين معي .. فنجاناً .. ؟

ـ لا أستطيع، الوقت متأخر ..

ـ ولكن إلى أين .. ؟

ـ يعني .. ؟

ولم تقل شيئاً .. هزّت رأسها وأخذت تبحث عن عباءتها.. وأتجرع القهوة أسارع في شرب الفناجين محاولاً التغلب على الصداع الذي يهدُّ رأسي وفشلت، فالصمت الذي فرضته حولي بعد خروج جميلة لم يدم سوى دقائق، إذ اخترق أزيز دراجة ابن الجيران صومعتي وبكاء أطفال الوافدات لزيارة جارتنا شل ما تبقى في أعماقي من محاولات..

ـ يجب أن تغيري رأيك وتبقي معي فهناك موعد هام يجب إنفاذه وبعد ذلك أسمح لك .. أمامك وقت كاف كي تلغي الفكرة.. أرجوك اخرجي عن صمتك وأجيبي على رجائي.. هل ستغيرين رأيك أم أنك ستبقي على عنادك ؟ .

ـ ....

ـ يجب أن تغيري رأيك ..

وتلفت حولي لم يكن بالقرب مني سوى دله القهوة الفارغة وفنجان في قعره بقايا وجميلة تقول – كذلك هي العائلة فرع من قبيلة كبيرة كانت تسكن الحجاز، ويوجد حضر ينتمون إلى تلك القبيلة، وقد ورد ذلك في كتاب تاريخ نجد ومعجم قبائل العرب القديمة والحديثة ..

كانت المسألة بسيطة للغاية .. مسألة يقال إنها تتعلق بطبيعة الإنسان وغرائزه، وأشياء كثيرة شعرت الآن أنها تافهة رغم أن العم أبو صالح أكد ارتباطنا بالأسرة الموجودة في القصيم، وأن السبل التي تحمل اسم العائلة الموجودة بتلك الناحية لنا الحق في سهم من أسهمها، وكل ما علينا هو مطالعة شجرة العائلة ..

ـ أحمد .. أحمد انهض – هل أحد ينام الوقت هذا.. ؟

وتطلعت حولي.. كانت الساعة السابعة والنصف مساءً .. حاولت أن أقول شيئاً فلم أستطع .. المهم عادت جميلة لتوقظني من النوم.. إن الرفاق لم يحضروا للسمر كعادتهم، وعلي أن أشاهد ما تبقى من برامج في التلفزيون، لقد برزت ثلاثة أشياء أمام أفكاري السابقة، تخلق في ذات الوقت مرحلة جديدة علي أن أفكر بها في جوهرها قبل أن يأخذني الوقت ويرتفع الصخب من جديد ..

البحث عن ابتسامة

لتنهار كل المبادئ وليعم الدمار العالم، لترحل الكلمات الطيبة في قارب صغير يجرفه التيار إلى أعماق البحر، وتجتاح الأعاصير والأمواج المدن وتتلاشى صرخات الهلعين.. في الضباب الأسود الذي أتمنى أن أغطي به كل شيء حولي حتى نفسي.. أنا حاقدة لأني منبوذة، كلهم رأوا فيَّ شبح الجريمة وحقد البشرية جمعاء رغم أنني لم أقترف ذنباً يذكر .. ماتت أمي وهي تصر على أن أكون بعيدة في مدرستي الداخلية التي قرر أبي حبسي فيها، وأيد قراره جميع أفراد الأسرة .. كنت ألمح بريق الانتصار يطل من العيون حولي فأعيد بصري حسرة أبحث عند أقدامي عن الحقيقة الضائعة في زحام من حولي.. لم ينتشلني رفاقي مما أنا به ولم يخفف من مضاعفات ما أعاني رحيلي الدائب وحرصي على البحث عن الغرباء.. كنت أفر من الجميع لأحرص على اكتساب صديق..

كنت أخشى مشاهدة ذلك البريق الذي لمحته في عين أمي وهي جثة هامدة مسجاة على فراشها.. كان عهدي بها لحظة الانتصار عندما وافق أبي على إدخالي المدرسة الداخلية .. البريق الذي شعَّ من عيون الجميع إنه الآن يطل بقوة من عيني والدتي الميتة والتي أصررت على

مشاهدتها قبل مواراتها التراب.. ومبعث إصراري تحدي الجميع.. وأبي المنهار الذي انهار لتلك الهمسات المسمومة التي تدور حولي.. كنت أريد منهم أن يصمتوا ولكن ذلك زاد من ثرثرتهم، وتقدم مني طبيب الأسرة يسألني إن كنت أريد مساعدة وفي بطء أزحته بيدي واتجهت إلى الكرسي الذي اعتادت أمي الجلوس عليه في غرفتها.. وأخذت أبكي ..

كان بكائي صمتي وتلفتي حولي .. وكان الفراغ يحيط به .. لم تكن هناك جدران ولا ستائر نوافذ .. أبداً لم يكن أمامي سوى فضاء رحب .. لا أعلم كم من الوقت مر .. كل شيء هادئ، الرياح سكنت، وأغصان الحديقة لزمت الصمت .. وأخذ الموكب المهيب يجتاز باحة الدار .. الجميع مطأطئ الرأس يأكلهم الصمت وتقرأ أفكارهم بشيء حاولت معرفته من تلفت بعضهم وهم يتبادلون أماكنهم تحت النعش، وألصقت وجهي بزجاج النافذة أتأمل الطريق والموكب يغرب.. يبتعد .. وشعرت في تلك اللحظة بالدموع تنسكب على خدي وسمعت ورائي خطوات .. كان أبي المنهوك وتلقفني بذراعيه، كنا نبكي، ودخلت عمتي، ودخل بقية أفراد الأسرة.. لقد انتهت مراسم الدفن .. طمر القبر في ثوان، فقط شعرت فيها بأن أبي لم يكن لي شياً من الحب وأن هناك نقطة نستطيع الالتقاء عندها، ووقفنا مطأطئي الرؤوس نتقبل العزاء .. كانت كلمتهم واحدة، كلهم يقولون كلمة واحدة حتى ذلك الصبي الذي

التصق بساق أمه مع أنه لم يحرك شفتيه إلا أني سمعته يقول الكلمة نفسها.. وتحركت مبتعدة أخذت أسير وأنا ساهمة لم أبال بنظرات من حولي ولا باستعطاف أبي وهو يرجوني الوقوف إلى جانبه لشد أزره، وانتهت فترة العزاء، عاد أبي إلى مصنعه وأخذ الجميع يعودون إلى مرحهم.. كثر عدد سكان الدار هذه المرة، هكذا تصورت رغم أننا فقدنا أمي.. لقد كان الضجيج يملأ الغرف والاجتماعات الثنائية الصامتة تحطم أعصابي ..

نظرة النفور تقابلني من الجميع الذي يتجنبون الانفراد بي، مجنونة .. زرع أحدهم هذه الكلمة في نفوس من حولي فصدقوه، وتضخمت الهمسات، سمعت الخادمة تكلم أحد عماتي..

ـ لم لا تعود سلوى لمدرستها .. ؟

وعرفت مدرستي أنها تلك الكلية البعيدة للشواذ والمشاغبين وذوي الحساسية الخاصة.

ـ محمود.. لماذا لا تعود سلوى لمدرستها .. ؟

كان أبي يتلقى هذا السؤال في كل مكان .. حتى عندما أخلو به ونجعل من الصمت رسول تفاهم كنت ألح على السؤال المرسوم على الجدران في كل مكان وصرخت في أبي..

. وأنت هل تريد مني الذهاب إلى المدرسة .. ؟

وذهبت إلى المدرسة وبعد أيام إذا بأبي يموت.. تدهورت سيارته .. ولم يعتن أحد بطلبي وغرقت في دموعي بشكل رهيب حتى وجدت المشرفة على القسم الذي أنا فيه أنه يجب مساعدتي (كان ذلك في ليلة مشئومة بالنسبة لي صرخت الفرحة في جنيات دارنا..) وأغلقت المشرفة فمي بيدها وهي تقول :

. إني أعرف كل شيء ..

. ولكن هل أنا مجنونة .. ؟

وطأطأت رأسها .. وحاولت أن أنسحب من أمامها ولكنها أمسكت بي..

. سلوى.. أنت لست مجنونة، لكن هناك من يهمهم إلصاق هذه الصفة بك ..

. كلهم يتجنبون أن يعطفوا عليّ ..

. إنه عطف من نوع خاص .. عطف من نوع آخر .. أحدهم فرضه على الجميع .. ومع مرور الزمن صدقوه حتى أبيك صدقه، وكذلك أمك رغم أنها تقف إلى جانبك كانت تخشاك وتنعتك في فترات مجنونة..

. إني أتذكر أول مرة نعت بها .. عندما خرجت من غرفتها عنوة حيث كنت أحاول وأنا في العاشرة كما أظن فك الحبل الملعون الملتف حول رقبة أخي الصغير..

. لقد اتهمك الجميع بأنك خنقت أخاك بسبب غيرتك منه لأن الجميع يهتمون به.

. ولكن يا سيدتي ..

. أعلم .. لقد دخلت الغرفة فوجدت الحبل يطوق عنق أخيك، وعندما لم يتجاوب مع حركاتك أخذت تفكين الحبل محاولة إيقاظه فإذا بوالدتك تدخل فجأة ويلحق بها الآخرون ..

. أجل ..

. وبعدها أخذ الجميع ينعتونك بالمجنونة ..

. أجل .

. والآن تحققت مآربهم، وبما أني أعرف أنك لست مجنونة لذلك يجب علي مساعدتك ..

. إذاً لماذا أبقيتني هنا كل هذه المدة.. ؟

. خوفاً على حياتك ..

وخرجت من باب صغير جانبي من المدرسة وأخذت أتجول في الشوارع حتى وصلت الدار التي وجدتها مهجورة، وأخذت أبحث عن منفذ أدخل منه إليها، ودخلت.. أخذت أتجول في ردهات الدار وأشعل الأنوار حتى أصبح البيت قطعة من نور.. ويقرع الباب الخارجي، كان الحارس الليلي الذي اعتاد المرابطة أمام الدار أثناء نوبته، وتجلجل من الخوف عندما شاهدني، لكني قابلته بابتسامة رقيقة، ودسست في يده قطعة من النقود وأنا أقول..

ـ لا تدع أحداً يدخل الدار حتى تخبرني..

كانت الصور تجري أمامي وأخذت ألاحقها أبحث في الغرف المشعة بالأنوار عن شيء بينما أصوات فرامل السيارات المسرعة التي تقف أمام الباب تصك أذني، تدفعني إلى الجري، كنت أبحث عن شيء لا أعرفه.. وتصلبت أمام غرفة استعصت علي لا أذكر لمن كانت، ولكن الباب فتح.. كانت الجدران ملطخة بالصور وبالمناظر الجميلة وقد علاها التراب.. أخذت أجول أتفحص اللعب المتناثرة.. لقد كانت غرفة أخي الصغير الذي كنت سبب موته.. وشاهدت السرير المتحرك المشدود بالحبل (لأن والدتي كانت تهزه بواسطته أثناء انشغال الخادمة) وأخذت الحبل بيدي هازة السرير محاولة تذكر صورة أخي، لقد بدت تلك الصور الموضوعة في براويز حول السرير غريبة ولم أعرها انتباهي..

وتـذكرت شـيئاً وأنا أتأمـل صـورة عمـي أحمـد أصـغر أشـقاء أبي فأطلقت الحبـل مـن يـدي.. وأخـذتها بـين يـدي وأنا أستغرب وجودهـا في ذلـك المكـان .. ورن جـرس سيارة الشـرطة فأسـرعت والصـورة بـين يـدي خارجة من الغرفة وهبطت الدرج ثم شرعت الباب على مصراعيه داعية الجميع إلى الدخول وأخذت أتأمل الجميع المذهولين وشاهدتها مبتسـمة، وتقدمت وهي تمد يدها ملقية تحية المساء وأجبتها بانحناءة من رأسي، ثم دعت الجميع إلى الدخول.

كان أعمامي الثلاثة وعماتي وكل المستفيدين من وفاة أبي بالإضافة إلى رجـال الشـرطة ومـديرة المدرسـة الـتي هربـت منهـا، وأخـذتني المشـرفة جانباً، وأخبرتها بما قمت به، ثم قدمت لها الصورة فتأملتها وأخذت تجيل نظرهـا في الجالسين.. وعنـدما وصـلت إليـه دفعتهـا بكتفـي فتوقفـت أمامـه واقتربت من ضابط الشرطة.

ـ ماذا هناك يا سيدي.. ؟

ـ لا أدري لقـد اتصـل بي أحـدهم. ادّعـى أن هنـاك لصوصـاً بـدار المرحوم محمود..

ـ إذن لماذا جلست .. ؟

ونهض الضابط مرتبكاً، فأخذته جانباً وتحدثت معه قليلاً، وعندما انتهيت، اتخذ طريقه إلى الباب الخارجي، وهو يشير لمرافقيه، ونهض العم أحمد..

. سيدي.. ؟

. وماذا تريد .. لقد أثرنا المشاكل لسيدة الدار..

. ولكن .. ؟

. أعلم ما تريد قوله، لكن ما دامت المشرفة والتي تعرف كل شيء شرحت الأمر فلا داعي للبقاء..

وخرج الضابط ومرافقوه، ودبت الحركة في الدار المهجورة، أما أنا فقد أخذتني المشرفة والمديرة جانباً، وسألتني المديرة عن سبب هروبي، واحترت في الإجابة، لكن المشرفة شرحت الموقف، وتحول غضب المديرة إليها، ووعدت بمجازاتها وهي خارجة والتف أعمامي حولي بينما اختفت النسوة وران الصمت علينا.

. سلوى تعبة يجب أن ترتاح ..

تخلصنا منهم وأخذتني إلى غرفتي، وأخذنا نتحدث، كانت تعرف كل شيء عن الدار .. دخلنا غرفة أخي لنبحث في الزوايا والأدراج عن

شيء .. وانتقلنا إلى غرفة أمي نبحث بالأدراج والخزائن ووجدنا "دوسيه" احتوت وصفات طبية، كتبها طبيب الأسرة، كما عثرنا على دفتر به بعض الملاحظات.. وخرجنا من الغرفة لنفاجأ بالعم أحمد يتلصص، حيث تصلب في مكانه، ومررنا به في هدوء – مجرمة – هكذا كنت لكني في نظر أقربائي مجنونة، ولهذا لم يحدثني أحد عند الصباح، ولم يشاركني مائدة الإفطار سوى المشرفة ومديرة المدرسة التي وصلت مبكرة، وأخذت أتجول مع الاثنتين في حديقة الدار، ولما عدنا كان الجميع في غرفة الجلوس، وطلبت المشرفة الشرطة التي حضرت وقدمنا للضابط الملف الذي وجدناه في غرفة والدتي ثم طالبته بفك الحجز على الدار والمصنع، وتسليم كل شيء لي، واحتج الحضور، وأخذت الكلمات تعلو بينما أخذ يقلب الملف ..

ـ إنها مجنونة وقاتلة ..

ورفع رأسه باحثاً عن صاحب الصوت .. ولكن ران الصمت على الجميع ونهض إلى التلفون وطلب الدكتور، وهو يتأمل الجميع.. وحضر الطبيب، فأخذه جانباً وأطلعه على الأوراق ..

ـ وكيف مات الصغير .. ؟

ـ كما أظن طبيعياً..

. ولكن أين الشهادة ..

. هذه ..

وتأمل الشرطي الشهادة، ثم اطلع الدكتور على جملة وضع تحتها خطاً (لقد قتلت أخاها، إنها مجنونة.. ولولا مساعدة الطبيب لكانت فضيحة).

. ما رأيك في هذه الكلمات .. ؟

. لا أدري .. ولولا أني أحتفظ بسجل للأسرة لكنت صدقت هذا.

. هل كان الطفل مريضاً .. مرض الموت .. ؟

. تقريباً..

. ومن كان يشرف على علاجه.. ؟

. أحمد كما أذكر . لأن المرحوم كان مشغولاً في سفرياته ومشروعه الجديد .

. المصنع.. ؟

. أجل .

. وسلوى هل تذكر عنها شيئاً.. ؟

. أبداً ..

. ألا تعرف دوافع إدخالها مدرسة داخلية .. ثم عدم مشاركتها في دفن والدها؟

. قيل إنها اعتذرت ..

وتلفتُّ حولي أبحث عن شيء أنهي به الحديث واقتربت..

. ألم يقولوا لك إني مجنونة.. ؟

.كنت أسمع شيئاً من هذا لكنني لا أهتم..

. لماذا .. ؟

. لأنها بعيدة ..

وأخرج الضابط صورة عمي أحمد القديمة من تحت الملف..

. هل تعرف صاحب هذه الصورة .. ؟

. أجل ..

. شكراً ..

واقترب العم أحمد وجلس على المقعد الذي غادره الطبيب، سيد أحمد ابنة أخيك "سلوى" تطالب بتسليم مخلفات والدها، ولكن هناك

اعتراضاً منك.. وتدعي أنها مجنونة ومما هو ملموس نرى أن ذلك كذب، وهناك دوافع لذلك فما هو سبب معارضتك.. ؟

ـ لا شيء.. ولكن حرصاً على المصلحة العامة .

ـ إذن لا اعتراض .. ؟

ـ أنا لا أعترض.. ولكن لو قابلت الآخرين لوجدتهم يؤيدون فكرتي وأن ما قلت حقيقة ولا مصلحة لي فيما ذهبت إليه ..

ـ وما هي علاقتك بوالدة سلوى الحقيقية .. ؟

وجحظت عينا العم أحمد عند سماعه لهذا السؤال، وأخذ يرتعش عندما لوح الشرطي بدفتر مذكرات والدتي.. وطال الحديث وحضر آخرون وتلاشى فيه إصرارهم وادعاؤهم أني مجنونة .. وتسلمت كل شيء وخرجت الصحف تحمل نبأ دخولي المجتمع وتلقفتني الأضواء، وأخذت أبحث عن نفسي بعد كل هذا، ولكن وجدت أني منبوذة .. لقد طغت تلك المرحلة المترسبة في أعماقي أخيراً وشعرت بأن علي أن أنزوي.. لقد وجدت أخيراً البريق، ولكن بصورة جديدة.. كان بريق الحقد الذي يطلق من مقل من حول حتى من المشرفة التي وجدت أن دورها انتهى بانتصاري.. ونسيت في لحظة انبهاري فضلها فتلاشيت في الزحام ..

الأقزام تنتحِر

الساعة السادسة مساء وقد هدأ كل شيء، ولم يبق أمام الخندق وأكوام التراب سوى الأطفال يلعبون ويتسابقون على صعود التراب واللف حول (الدركتور) وإلقاء الحجارة الصغيرة في الخندق الندي الذي احتقن الماء في بعض جوانبه .. وفجأة علا صراخ الصبية ..

. عنزة سقطت في الخندق.. !

. أين .. ؟

وأشار صبي إلى الماء المحتقن في الخندق حيث كانت بعض الدوائر والفقاعات تطفو على السطح، ولم يشاهد المجتمعون شيئاً يؤكد صدق الصبي الذي راح يردد أن عنزة صغيرة سقطت في الماء، فعادوا للتفرق والجري .. بينما بقي الصبي الذي شاهد العنزة يتأمل سطح الماء .. ومرَّ الوقت وهو واقف، وحل الظلام فغادر مكانه، بزغ القمر إذ كانت هذه الليلة من ليالي منتصف الشهر ولا شيء في الشارع سوى الخندق العميق الممتد على طول الطريق وأكوام التراب المزروعة على الجانبين (والدركتور) على رأس الخندق في صمت وقوة كقائد فرقة صمم على الاستمرار

والمضي قدماً، وخرج "محمد" من الدار حيث سمع صوتاً في الشارع، ولكن لا أحد هناك، وأطلت "بدرية" برأسها من نافذة غرفتها، ثم اختفت بسرعة فقفل عائداً إلى مقعده أمام التلفزيون ..

. من هناك .. ؟

. لا أحد ..

. ولكن لماذا نهضت من مكانك .. ؟

. لقد سمعت جلبة في الشارع ..

لم يستمر الحديث طويلاً ونهضت "منى" من مكانها ودخلت المطبخ لإعداد فنجان من القهوة .. تململت في إعداده حيث حاولت دفعه على مساعدتها في استذكار دروسها خاصة وأن الاختبار لم يبق عليه سوى يومين فقط..

عاد الضجيج إلى الشارع مجدداً، فقد أخذ عمال الحفر يعملون بهمة ونشاط، وأخذ (الدركتور) يكمل مسيرته نحو إكمال شق الشارع، بينما البنات والأولاد وهم في طريقهم إلى مدارسهم يتوقفون قليلاً لتأمل ما يدور ثم يواصلون سيرهم .. يوم جديد من العمل عليه أفاق محمد على غير العادة وخرج لأخذ الفطور .. كل شيء عادي، إنها الحركة التي بدأت

منذ الشهر : العمال أنفسهم، والعمل الدائب نفسه (والدركتور) الذي يجرح الأرض، والأطفال الواقفون على أبواب المنازل لمتابعة العمل، والفكرة التي أخذت تترسب في الأعماق عن القوة .. قوة الأقزام الذين يقفون حول (الدركتور) كل يوم متأملين ما تقوم به هذه الآلة من عمل جبار غير مبالية بما حولها والتي لم تصل إلى شيء رغم المحاولات التي أقلقت راحته حتى إنه أخذ يقفل الباب بالمفتاح خشية أن يصيب طفلته مكروه عند ذهابه إلى العمل في الصباح.

عاد المتفرجون للتكوّم ومتابعة (الدركتور) في غدوه وإيابه إذا أغلقت المدارس والدوائر الحكومية أبوابها وجلس أصحاب المنازل المطلة على المشروع يقفون في نوافذ منازلهم وعلى الأبواب بعد أن نزعهم الضجيج من الفراش ولحظة القيلولة .. وارتفع صوت الصبي ..

ـ هذه العنزة.. هذه العنزة..

وأسرع الجميع إليه .. لقد كان صبي البارحة الذي شاهد سقوط العنزة في الخندق وأخذوا يتأملون الرأس الصغير الذي طفا فوق سطح الماء..

عين من دم

(جرحنا صار أوسمة)، وفجأة يغرز الخنجر المتسلل من الشباك في ظهر الأم البائسة التي سحبها القدر بطريقة عفوية لتنام في فراش زوجها المهدد بالموت..

وأنسى كل شيء ويد صديقي تهز كتفي..

ـ شوف كيف المجرم قتل أم شلبي ..

وأنا عندك بين عينيك التي أجهل الآن لونها، وجسمك الأصفر الناحل وغرتك الشقية تثير هواجسي، لم أكن أعرف شيئاً بعد، أعيش على كتاب المدرسة.. أتغذى وأفطر به وطرف المسطرة ينسلت في قسوة على قفا يدي، لأني لم أحل الحساب ولم أحفظ جدول الضرب، لأني سهرت بين عينيك ويدك الصغيرة حركاتها تجذبني وأنت تتحدين على الكيرم حماتك نايلة ..

أنا الآن قد جاوزت العشرين، شاربي يقف عليه الصقر، وذقني شائكة، أما صوتي فما زال هو .. هو لم يتغير .. غير أني زدت تحولاً ولم أعد ذلك الولد الذي يرتدي الأسمال فلا يؤثر فيه منظرك المغري، وأنت

تتناولين فطورك المتأخر في غرفتك وقد تبعثر شعرك وضاعت الخصلة الشقية .. أو وأنت تمزحين مع؟! .. وتصارعين شقيقاته، كل هذا عاد إلى مخيلتي الليلة، كنا ثلاثة أنت .. وفاتن.. وأنا، نسير في الطريق المظلم الذي يوصل إلى دار أخيك، وقد أزحت – الحجاب – عن وجهك وتعلقت بكتفي كعجوز أكلت ظهرها السنين، وفاتن تقهقه وهي تتلفت حذرة من أن يلحق بنا أحد، وأنت متمادية في تمثيلك، لاهية عن كل شيء حتى عن ذاتك، تفكرين في ذلك العهد البعيد الذي لم تحفظي عهدك معه .. ورغم دموعك لبست ثوب الزفاف الأبيض والجميع يضنونها دموع الفرح ..

إنه هنا وصل اليوم إلى الطائف في مهمة رسمية، والليلة حفل عشاء يقيمه أخوك على شرفه، وأنت مرتبكة، تأخرت حتى لا يشعر أحد بارتباكك، فأثرتِ حيرتي وخوف فاتن من أن يطل أخوها فيثيره منظرنا المريب، ولم تتبق غير خطوات حتى عدت للحقيقة لكن كان فيك شيء جديد، أنت مصفرة، وقد فضح ذلك عامود النور، بينما فاتن منشغلة في إعادة حجابها .. وتصلبت نظراتي عليك تسأل هل أنت محمومة؟ وهزك اكتشافي ذلك، ولم أقل شيئاً، وعدنا لواقعنا، كان صوت العود الذي يداعب أوتاره أخوك يصل إلى الشارع كتواشيح ملائكة، وتوقفنا كي نغترف من اللحن الهادئ في وحدتنا وانطلاقنا وأيدينا متشابكة نحن

الثلاثة مكونين حلقة عجيبة وسمعنا وقع أقدام تقترب من الباب فتركنا الباب يقرع وابتلعنا المسكن أنتم إلى الغرف الداخلية وأنا إلى المجلس الخاص بالرجال ..

وفجأة ينغرز الخنجر وتنطلق سيارة شحن مسرعة تدفعني إلى أن التصق بجاري من الخوف وأصواتكم تصلنا، لقد كانت بينكم واحدة خائفة من السيارة المسرعة لست وحيداً فأخذت أضحك من حولي، من طفولتي التي أخذت أودعها، ويدي في حضن الشقية التي كل صباح تضرب شقيقتي عندما نلتقي بها على طريق المدرسة – تلك اللاجئة الشقراء – التي يطير فستانها القصير الهواء فيظهر قفاها وسروالها الصغير كانت تعض كتفي في عفرته وطفولته ..

كنت أنساها عندما أراك منتصبة أمامي وفي يديك الحبوب العشرين ولوحة الخشب المركونة على الجدار تنتظرنا، ونتحدى فاتن واللاجئة لكن الأخيرة تقرصني في فخذي بقسوة كلما يأتي دوري في اللعب، وأقاوم وأنا أرى بحري يتلاطم والزوابع تثير صفوه، تهم بأن تبتلع زورقي الصغير، لكن نفوز ليس كالعادة بتفوق إنما بعد محاولة يائسة ويدي ترتعش، وأنا أتطلع إلى اللاجئة بعين ذاوية فإذا بها تغلي وقطرات الدم في عينيها تخضب يدي باللون القاني .. وبكاء مر ونشيج يقطع صدري يلون وجه أختي الصغيرة وهي ترجو والدتي بأن لا تدعها تذهب إلى المدرسة

مرة ثانية .. إنه أنت وقد ذهبت فاتن مع زوجها بعد أن يئست من أخي.. ونحن غيرنا دارنا القديمة بمنزل بعيد، واللاجئة أصبحت ترتدي العباءة وهي تسير لوحدها في طريقنا القديم، وزوجك باع منزله، وأخوك سافر إلى جدة بعد أن نجح في دنيا الغناء فغدا مرموقاً.. وأولاد حينا أصبحوا رجالاً يلاحقون بنات المدارس .. تمرين الآن بي وبين ضجيج صالة السينما والدخان الذي يدفعني إلى السعال – في منامتك الحمراء – والسيارة ما زالت منطلقة والبطل يطرد من البوليس وأم شلبي تخرج من المستشفى، تتقدمين نحوي في يدك خنجر، وأفغر فمي في بلاهة ويدك ترتفع وعيناك تقدحان شرر الجريمة، وغيمة حمراء تمر بي فلا أشاهد شيئاً، لكن بريقاً يلفت انتباهي عند قدمي إنه الخنجر ويدك ما زالت مرتفعة وعيناك متحجرتان وقد فقدتا لونهما وجسمك الصغير تبتلعه الأرض .. وعينان من دم .. أمامي فتاة شقراء شعثاء الشعر .. وفستان قصير يلعب به الهواء .. ووجه صامت إني أعرفه لكن لا تسعفني الذاكرة، فقد تملكني الوهم والخوف.

❁❁❁

الحافلة

انطلق باحثا عن عود ثقاب حتى يشعل طرف السيجارة. لم يكن يدخن ومع ذلك قام بشراء علبة دخان من كشك السندوتشات والمياه المبردة.

تلفت متفحصا وجوه ركاب الحافلة التي تنقسم إلى قسمين الأول للذكور والخلفي للإناث. وإذا بيد خلفه تمتد بقداحة سجائر مشتعلة، التفت إلى الخلف ولمحها من وراء الحاجز قد تكون واقفة بسبب الزحام.. قد يكون بصره تجاوز الحجب فلمحها مصادفة.

إنما وازع جديد في داخله دفعه إلى رفض إشعال السيجارة والاعتذار لصاحب القداحة بأن لوح بكفه اليسرى مثمنا التصرف. لم يكن يتوقع أن هذه الحركة سوف تصل إلى القسم الأخر من العربة، توقفت الحافلة في باحة السوق المركزية. أخذ الجميع يترجلون منها كان أخر المغادرين، تلفت حوله لم يكن هناك أحد أشعره رجل الأمن بالغثيان الصور تتعاكس لا شيء واضح المعالم.

رفع كفه متحسسا جبينه. كانت السيجارة بين أصابعه تأملها مليا وبهدوء باعد بين الإصبعين، التي تحاصرانها فتمددت فوق الرصيف سحقها بمقدمة حذائه.

ما زال يشعر بالغثيان رجل الشرطة أصبح اثنان.. ثلاثة.. اربعة، عاد للحافلة جلس في مقعده السابق؛ انطلقت ادخلها السائق المرأب لانتهاء نوبته في العمل.

العيد

دعني أشاركك الملل. صوت خافت ينبثق من داخلي وقد جلست وحيدا اقلب صحف اليوم، هناك من يبكي ودموعه كزبد البحر، وهنا غجرية تضحك ملء وجهها اثر مداعبة ماجنة من مشتر يحدق في شبق في عينيها وهو يساومها لشراء نقاب وشته أناملها بالقلوب وغطاء مخدة خاطته بخيوط قطن ملونه تجهل مصدرها.

لا شيء يساويني في الفراغ. هكذا أنا منذ رجعت إلى عادتي القديمة وهي الجلوس في الدار وحيدا، تشعلني جملة وتبعثرني مفردة كأني قشة في مهب ريح.

منذ زمن بعيد لا أذكر تاريخه جرى اختطافي. بعد أن أعترض مجموعة تم تمويه معالم وجوههم بصباغ عاكس عربتي، كل ما أحفظه كان الطريق طويلا ومتعب، حتى الإشارات والحديث الهامس بين الخاطفين لم تتمكن من التصدي للصمت.

. أهلا

. لا أدري كيف ابدأ

نبرات الصوت مألوفة. لقد كانت هي البحر الذي احلم بالسباحة فيه، غير أن خوفي من الغرق وجهلي بالسباحة فرضا علي البقاء على الشاطئ وملامسته بنظري.

. لا تدري وأنت إشكالنا

. إشكالكم

. هذا الطفل.. اشكالنا

كان يرشف شيئا ما من إناء جثم على الطاولة التي يجلس إليها في ركن من البهو الذي أقف فيه. جانب من وجه الطفل وابتعاد قدميه عن الأرض بسبب ارتفاع قوائم الكرسي يدلان على انه في الخامسة.

. ما أسمه

. نحن نناديه.. أسامة

. وهل استجاب

. نعم.. اخذناه من امرأة تمارس البغاء والتسول

. ماذا

. توقفت عربة على جانب طريق معتم.. لتمارس الجنس مع قائدها فتسلل الطفل إلى الحديقة

المليئة بالألعاب الخشبية.

. أنه ابني

. وهي

قررت الاتجاه نحوه. لكن قدمي لم تساعدني، الطفل يواصل لعق ذلك الشيء المجهول، كما أن وقوفي لم يثر انتباهه، نداء صاخب يدفعني إلى التحرك، لم يغير من جلسته وانحناء رأسه أو تحريك يديه، بينما لسانه مازال ممدودا منذ دخلت.

لقد كان تمثالا من الشمع. عندما توصلت إلى هذه النتيجة دبت الحياة في مفاصلي، قدمي تقودني إليه، المسافة ثابتة والصوت المألوف يستجوبني والجماعة الخاطفة ينسلون فرادى العرق تصبب من جبيني.

. الطريق تطاول.

. لم يتطاول ولكن شاق.

تلفت حولي كل الأشياء منحنية الأشجار البنايات العربات الناس. الشيء الوحيد الواقف هو أنا توقفت نظراتي عند قدمي فإذا بي لا أملك

قدمين وساقين وأن ما يحملني ذرات تشبه غبار الرمل المحيطة بأعمدة النور في شوارعِ الرياض، وأنا أتأمل ذلك عندما لا أجد ما يشغلني.

. ها وصلنا.

. لكن الطفل اختفى.

خيط ضوء يطل من جانب البهو عبر باب موارب. وصوت أحاديث وقهقهات اقتربت من الباب غمرني الضوء كف صغيرة تتشبث بكفي وصوت اعرفه يهمس.

. أبي لقد تأخرت.

كان أسامة الذي فقدته منذ أعوام ثلاثة بسبب حادث دهس سيارة مسرعة قتله وهو عائد للدار بعد شراء حلوي العيد من بقاله بالقرب من المنزل.

احتضنته وأنا أتفحص وجوه الحضور كلهم مجهولين حتى صاحبة الصوت المألوف لا أعرفها أفسح لي الجمع مكانا بقرب طاولة الأكل، أسامة الواقف اخذ ينحني وامرأة تنبثق من سقف البهو ملابسها براقة وحلي تتوهج تحفز انه يهرب انفلت مغادرا وأخذت أناديه والجميع يتمسك ببقائي في مقعدي.

أغلق الحضور المدخل مرحبين بالقادمة لما لمحتني رفعت كفها ملوحة.
وصلت بعناء إلى الباب لم اعد أنا، هنا أخر في داخلي لمعت في داخلي كلمات وحروف لم أستطع جمعها فقمعتها، عربتي أمامي والجمع خلفي أدرت المحرك انفجرت النار تطوقني جسدي يحترق الأشياء تختفي والطريق يمتد في صمت منتظرا من يعثر علي.

✿✿✿

الطريق

نخلة لا يزيد طولها عن متر ونصف ومئذنة مسجد صغير يرتفع فوقها هلال. وبالجوار مدرسة ابتدائية مكونة من ستة فصول في بناء متهالك يدل على فقر القرية التي لا تزيد مساكنها عن عشرين دار.

يحيط بالقرية من الشرق والجنوب مزارع صغيرة ومن الغرب يمر طريق زفت إلى الجبال. طلبة المدرسة يتحركون بهدوء وسكينة لوجود غرباء في غرفة المدير .

كان يقف وحيدا وثوبه الأبيض القديم. في التاسعة من عمره، أشار مدير المدرسة الذي يقف مع زوار المدرسة الغرباء .

. هذا طالب يستفيد من عربة النقل

غادر الغرباء المدرسة يرافقهم المدير سيارتهم. الصمت يطوف بسكونه على الجميع الطريق جبلي وعر، جرفته السيول وان مهدته دواليب العربات باستمرارية الرحيل .

قال أحد الغرباء

. ولماذا هذا الطريق

. لأن الطريق الأول قطع

لم يستفسر الغرباء عن سبب قطع الطريق السابق. حتى وصل الجميع إلى سكن جزء من طلبة المدرسة، البيوت القديمة من الحجر والجديدة المتهالكة من الطوب والخشب وصفائح الزنك متناثر على امتداد واد تكسوه الأشجار.

. هل يربي السكان الأغنام

. هي رحلة أبدية للبحث عن المطر

.كم المسافة بين هذه المساكن والمدرسة

. تقريبا عشرة كيلو

ابن التاسعة شعر برجوعهم فخرج من الفصل.

. هل وجدتم أحمد

كان احمد رفيق طريقه إلى المدرسة. عبر الطريق الطويل بعد قيام أحد الأمراء بتسوير الأرض المثمرة بإيعاز من مندوبه المجهول عزلت المدرسة عن منازل القرية المزروعة بين الجبال.

بعضهم يدعي أن إحدى ساكنات هذه المنازل تعرفت على شاب شاهدها يوما في سوق المدينة وعرف مندوب الأمير عندما تكرر وجود عربة بين المنازل هذه الصداقة، فأغرى السكان بطيب أخلاقه وسماحه لهم بالسقي من البئر التي حفرها في القرية بعد أن سور جزء لمعداته التي شارك بها في تمهيد الطريق المز فت حتى لا يعترض أحدهم على استيلائه على أرضهم.

ونمت غريزة الاستيلاء بعد فشله في اكتشاف سر المرأة التي غادرت الوادي مع اسرتها. فكان أن زين للأمير الذي يخدم عنده بتمديد السور والتوسع مما قسم القرية وجعل الوصول للمدرسة شاق.

عادت المرأة إلى الوادي مع ابنها احمد الذي اختفى ذات صباح وهو في طريقه إلى المدرسة مد أحد الغرباء كفه مطبطبا على خد الصبي.

. ما أسمك يا ولدي

. حمزة

. ومن.. أحمد

. ابن مزنه

دخل الغريب غرفة الإدارة. وقف أمام مكتب مدير المدرسة الذي انهمك بتوقيع بيانات نقل الطلاب ومراجعتها ..

. أين أحمد.

رفع مدير المدرسة رأسه. تأمل الفضاء الذي يتجاوز الباب المفتوح وإطار النافذة، وحدق في الغريب، ثم حني رأسه منكبا في عمله.

أقترب الغريب تفحص ما يكتب المدير. خطوطا متعرجة ومربعات ودائرة من أسلاك شائكة تحاول طمس وجه طفل طافح البشر، انبثق من بين الخطوط والأسلاك ليقف إلى جور رفيق الدرب المنتظر وحيدا في فناء المدرسة وسارا مجتازين السور الشائك إلى الجانب الأخر من القرية عبر الطريق القديم.

المحتويات

تقديم 6

في المرآة وجه يجهش بالبكاء 9

اعتراف بأمر يخصني وحدي 12

الحكاية تخدع الصنم 16

الممثلة تقفز من النافذة 22

الفضول يغير المعالم.. 25

السحاب يبسط ذراعيه 29

الأخوات الثلاث 33

إنّـه ولـد ! 37

الانحدار 44

الرقية... 51

القطار 55

فرشاة إله الرعد.. 61

أوراق من مذكرات فتاة فلسطينية 70

حـلـم 80
وارتفع الصخب 84
البحث عن ابتسامة 87
الأقزام تنتحِر 99
عين من دم 102
الحافلة 106
العيد 108
الطريق 113
المحتويات 118

القاص / محمد الشقحاء

* شارك في تأسيس نادي الطائف الأدبي عام 1395 واختاره الأعضاء المؤسسون عضوا في مجلس الإدارة آمينا للسر (سكرتير) عام 1395 وفي عام 1400 عقد الاجتماع الأول لجمعية نادي الطائف الأدبي العمومية وانتخب عضوا في مجلس الإدارة للمرة الثانية آمينا للسر. واستقال من المجلس عام 1416

* اصدر عدد من المجموعات القصصية أولها مجموعة (البحث عن ابتسامة) القصصية عام 1976

عن نادي الطائف الأدبي وأخرها مجموعة (التحلي) عن مؤسسة الانتشار العربي بلبنان 2021

* اصدر ثلاثة دواوين شعرية أولها ديوان معاناة عام 1977- 1397

* اصدر عدد من الكتب النثرية تضم بعض المقالات والدراسات الأدبية والشأن العام

* شارك مع الأستاذ محمد سعيد كمال في تحقيق كتاب تحفة اللطائف في فضائل ابن عباس ووج الطائف لابن فهد عام 1403

* شارك كعضو في اللجنة العليا للتشيط السياحي بمدينة الطائف

*كرم في منتدى الأثنينية الذي يرعاه الشيخ عبد المقصود خوجه عام 1424بجده (الندوة 260)

* وكرم في ملتقى القصة القصيرة والقصة القصيرة جدا بنادي القصيم الأدبي ببريده عام 1429.

* وحصل على عدد من شهادات التكريم والدروع من مؤسسات ثقافية حكومية وأهلية بالمملكة العربية السعودية.

❁❁❁

قالت جويس كارول اوتس (**اننا نكتب لكي نقدم صورة مختصرة ومترابطة للحياة التي هي في الغالب مربكة ومرعبة ومملة كما تتكشف من حولنا**).

وانا اكتب حتى اتخلص من هواجس قرين اعترض طريقي ذات يوم وانا ذاهب للمقهى لشرب كأس من الشاي الأحمر فعكر مزاجي.

القصة القصيرة عندي خليط من الاحداث والشخصيات المغمورة ازرعها في المكان الذي اجلس فيه منفردا متجاوز المقدس في فضاء اختفت جهاته.

محمد المنصور الشقحاء

دار بسمة للنشر الالكتروني
+212 771 814 934
basma24design@gmail.com
دار بسمة للنشر الالكتروني
www.darbassma.com